العبودية

لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم
ابن تيمية الحراني الدمشقي
المتوفى سنة ٧٢٨ هـ



تقديم
عبد الرحمن الباني

تحقيق
محمد زهير الشاويش

تخريج
محمد ناصر الدين الألباني



المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م - دمشق
الطبعة السابعة المجددة
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م - بيروت

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

تقديم

للمربي الفاضل الأستاذ عبد الرحمن الباني

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد وسائر إخوانه المرسلين، وعلىٰ آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، وتمسك بسنته، وجاهد في سبيل الله، إلىٰ يوم الدين.

وبعد: فإن الناس اليوم إذا ذُكرت (العبودية) نفرت نفوسهم واشمأزَّت قلوبهم، وذلك لما ذاقوا من شرور (العبودية) التي عرفوها وألفوها، وأعني بها: عبودية الناس للناس، وخضوع بعضهم لبعض.

ولكن ابن تيمية في هذه الرسالة يحدثنا عن (العبودية) المحببة إلينا. تلك العبودية التي ترادف التحرر من الوثنيات أياً كان نوعها، والتي تخلصنا من الطواغيت المتكاثرة التي تريد أن تغتال جوهر إنسانيتنا.

تلك العبودية التي تقارنها الفضيلة والسعادة، والتي تردُّ علىٰ الإنسان كرامته وترفع منزلته.

إنها عبوديتنا لله الذي خلق الإنسان من العدم، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته. تلك العبودية التي ننحني بها لله ثم ترتفع جباهنا فلا نذِل لجبار في الأرض أبداً، مهما

علا، ونسير في الطريق إلىٰ الخير في الدنيا والآخرة فلا تقف أمامنا عقبة أبداً، حتىٰ نظفر بإحدىٰ الحسنيين: النصر أو الشهادة.

تلك (العبودية) التي ترجم القاضي عياض {٤٧٦ ـ ٥٤٤هـ}(١) عن شعور كل مؤمن نحوها حين تغنىٰ بها فقال:

ومـمـا زادنـي شـرفـاً وتـيـهـاً
وكـدت بـأخـمـصـي أطـأُ الـثـريّـا
دخـولـي تـحـت قـولـك: يـا عـبـادي
وأن صـيَّـرت أحـمـد لـي نـبـيّـا

ولو أن الناس استجابوا للدعوة الكريمة التي أعلنها، بأمر ربه، رسول الله ﷺ قبل بضعة عشر قرناً، بهذا القول الخالد: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران].

ولو أن الناس استجابوا لهذه الدعوة لعاشوا جميعاً في حرية وفضيلة، وسعادة وسلام.

---

(١) هو عياض بن موسىٰ بن عياض، عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته. من تصانيفه: «الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ» و«الغنية». ولد في سبتة سنة ٤٧٦، وتوفي بمَرّاكُش سنة ٥٤٤. وقد زعم بعضهم أن شيخ الإسلام ابن تيمية قد انتقص القاضي عياض! والحق يقال: إنه أثنىٰ عليه بما هو أهله في أكثر من موضع في كتبه، وعاب عليه إيرادَه الواهيات في كتابه «الشفا».

وهذه

رسالة العبودية

من أمتع وأنفع ما قرأت من الرسائل، ولقد قرأتها منذ سنوات، فوجدت فيها علماً غزيراً، وتحقيقاً دقيقاً، وتوجيهات نافعة.

وقد لاحظت أن ابن تيمية رحمه الله يَعرض لنا فيها نظرية كاملة عن معنىٰ (العبودية) في الإسلام.

وهي نظرية غنية بالأفكار المترابطة التي يشتقها من النصوص الشرعية، والدلالة اللغوية، ويؤيدها بالمسلَّمات العلمية النفسية والاجتماعية، وهذا جانب من جوانب الطرافة في نظريته.

ونحن سنعرض باختصار نظريته ونذكر مزاياها ومنهجه فيها مشيرين إلىٰ بعض النتائج التي ننتهي إليها من ذلك كله:

١ ـ يقول ابن تيمية: (المخلوقون كلهم عباد الله: الأبرار منهم والفجار، والمؤمنون والكفار، وأهل الجنة وأهل النار، إذ هو ربُّهم كلِّهم ومليكُهم لا يخرجون عن مشيئته وقدرته، . . . فهو سبحانه رب العالمين، وخالقهم ورازقهم، ومحييهم ومميتهم. . . ومصرف أمورهم، لا رب لهم غيره، ولا مالك لهم سواه، . . . سواء اعترفوا بذلك أو أنكروه، وسواء علموا ذلك أو جهلوه.

لكن أهل الإيمان منهم عرفوا ذلك، وآمنوا به، بخلاف من

كان جاهلاً بذلك، أو جاحداً له مستكبراً علىٰ ربه. . .) (انظر ص٥٠ ـ ٥١، وانظر أيضاً ص١٠٤).

وكأن ابن تيمية يريد أن ينبّه إلىٰ أن العبودية لله نوعان:

عبودية قسرية تتمثل في كون الله ربنا ومالكنا، وكوننا خاضعين للقوانين التي جرىٰ عليها الكون والسنن التي نظم بها الخليقة، فنحن عباد الله ـ بهذا المعنىٰ ـ شئنا أم أبينا.

وهناك نوع آخر من العبودية، نستطيع أن نسميه (الخضوع الإرادي) أو الانقياد الشرعي، هو الإقرار لله وحده بالعبادة والطاعة فيما شرعه لنا من قوانين، لا تصبح نافذة وجارية في الواقع إلا بتدخل من إرادتنا.

وهو ما يعبر عنه ابن تيمية بـ (عبودية الإلـٰهية).

٢ ـ هذه هي الخطوة الأولىٰ من نظريته.

وأما الخطوة الثانية فيعبر عنها قوله: (وكل من استكبر عن عبادة الله، لا بد أن يعبد غيره، [ويذل له]) (ص١٠٠).

ويسوق الحجة عليه بقوله: (فإن الإنسان حساس يتحرك بالإرادة. وقد ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «أصدق الأسماء: حارث وهمّام»؛ فالحارث: الكاسب الفاعل، والهمّام: فعَّال من الهم. والهمُّ أول الإرادة؛ فالإنسان له إرادة دائماً. وكل إرادة فلا بد لها من مراد تنتهي إليه، فلا بدَّ لكل عبد: من مراد محبوب، هو منتهىٰ حبه وإرادته.

فمن لم يكن الله معبودَه ومنتهىٰ حبه وإرادته، بل استكبر عن ذلك، فلا بد أن يكون له مراد محبوب يستعبده غير الله، فيكون عبداً لذلك المراد المحبوب: إما المال، وإما الجاه، وإما الصور، وإما ما يتخذه إلـٰهاً من دون الله كالشمس، والقمر، والكواكب، والأوثان، وقبور الأنبياء والصالحين، أو من الملائكة، والأنبياء الذين يتخذهم أرباباً، أو غير ذلك مما عُبد من دون الله) (ص١٠٠ ـ ١٠١).

وهنا يبيّن لنا ابن تيمية أن الإنسان علىٰ مفترق طريقين لا ثالث لهما، فإما أن يختار العبودية لله، وإما أن يرفض هذه العبودية فيقع لا محالة في عبودية لغير الله.

٣ ـ وهو ـ كما رأيت ـ يقيم هذا الجزء من نظريته علىٰ **الأسس النفسية**، والتحليل الدقيق للطبيعة البشرية.

فالإنسان لا ينفك عن وصف العبودية، لأنه كائن حي ذو حاجات ومطامع ولأن له قلباً... فإما أن يكون عبداً لله، وإلا فهو عبد لغيره، وبتعبير آخر إن لم يرض أن يكون عبداً لله استعبدته حاجاته ومطامعه وأهواؤه وشهواته، وطواغيت الجن والإنس، وما يزيّنون لبني آدم من معبودات.

ومن هذا يتضح أن العبودية لله تحررهم من كل عبودية أخرىٰ شعروا بها أو لم يشعروا، رضُوا بها أو سخطوا:

(فالعبد لا بد له من رزق، وهو محتاج إلىٰ ذلك، فإذا طلب رزقه من الله صار عبداً لله، فقيراً إليه، وإذا طلبه من مخلوق

صار عبداً لذلك المخلوق، فقيراً إليه) (ص٨٢).

(والإنسان لا بد له من حصول ما يحتاج إليه من الرزق ونحوه، ودفع ما يضره...) (ص٨٥).

(وكل من علّق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يهدوه، خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميراً لهم مدبِّراً لأمورهم، متصرفاً بهم. فالعاقل ينظر إلىٰ الحقائق لا إلىٰ الظواهر) (ص٨٧).

وهنا يبلغ ابن تيمية أعماق الحقيقة النفسية حين يقول: (فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، كما أن الغنىٰ غنىٰ النفس) (ص٨٨).

ويقول: (الرق والعبودية في الحقيقة: هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلبَ واستعبده، فالقلب عبده) (ص٨١).

ولا يلبث أن يبلغ الآفاق الاجتماعية والسياسية حين يتحدث عن بعض مظاهر العبودية لغير الله، تلك التي تبدو ظاهراً بعيدة كل البعد عن أن يكون صاحبها عبداً، فيقول: (... وكذلك طالب الرئاسة والعلوّ في الأرض، قلبه رقيق لمن يعينه عليها، ولو كان في الظاهر مقدَّمَهم والمطاع فيهم، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم، فيبذل لهم الأموال والولايات، ويعفو عما يجترحونه ليطيعوه ويعينوه؛ فهو في الظاهر رئيس مطاع، وفي الحقيقة عبد مطيع لهم.

والتحقيق أن كليهما فيه عبودية للآخر، وكلاهما تارك

لحقيقة عبادة الله) (ص٩١). وهو يبين أن سبيل التحرر إنما هو كمال العبودية لله: (ولن يستغني القلب عن جميع المخلوقات؛ إلا بأن يكون الله هو مولاه، الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه... فكلما قوي إخلاص دينه لله كملت عبوديته، واستغناؤه عن المخلوقات) (ص١٠٢).

و(كلما ازداد القلب حباً لله، ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبودية، ازداد له حباً وفضَّله عما سواه) (ص٩٧).

٤ ـ ونظرية ابن تيمية في (العبودية) هي ـ في الوقت نفسه ـ **نظرية في الأخلاق** والفضيلة:

(وقد بيّن [الله][1] أن عباده المخلَصين، هم الذين ينجون من السيئات التي زيّنها الشيطان...) (ص٧٨).

(قال تعالىٰ في حق يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٢٤﴾، فالله يصرف عن عبده ما يسوؤه من الميل إلىٰ الصور والتعلق بها، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله) (ص٩٠).

ومن كانت عبوديته لله وجهاده في سبيله، فعمله كله فضيلة وهو لا ينحرف في أي شأن من الشؤون؛ إلا عندما يزيغ عن هذه العبودية.

---

(١) زيادة اقتضاها المقام.

٥ ـ وهي أيضاً **نظرية في السعادة**، فلا أسعد ممن كان عبداً لله، ولا أشقىٰ ممن عبد غير الله.

(إن القلب ـ كما يقول ابن تيمية: ـ إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له، لم يكن عنده شيء قط أحلىٰ من ذلك، ولا ألذّ ولا أمتع ولا أطيب) (ص٩٠).

ومن كان عبداً لغير الله كيف يكون عزيزاً؟! وكيف يكون سعيداً؟! سواء في دنياه أم في أخراه؟!

يقول ابن تيمية في عرض هذا الجانب من نظريته: (القلب فقير بالذات إلىٰ الله من وجهين: من جهة العبادة؛ وهي العلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل؛ وهي العلة الفاعلة. فالقلب لا يصلح ولا يفلح، ولا ينعم، ولا يُسَرُّ، ولا يلتذ، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه، وحبه، والإنابة إليه.

ولو حصل له كل ما يلتذّ به من المخلوقات، لم يطمئن ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلىٰ ربه، ومن حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور، واللذة والنعمة، والسكون والطمأنينة.

وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له، فإنه لا يقدر علىٰ تحصيل ذلك له إلا الله، فهو دائماً مفتقر إلىٰ حقيقة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾. فإنه لو أُعين علىٰ حصول كل ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده، ولم يحصل له عبادة الله، فلن

يحصل إلا علىٰ الألم والحسرة والعذاب، ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها؛ إلا بإخلاص الحب لله، بحيث يكون الله هو غايةَ مراده ونهاية مقصوده، وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله، لا يحب شيئاً لذاته إلا الله. ومتىٰ لم يحصل له هذا، لم يكن قد حقّق حقيقة «لا إلـٰه إلا الله»، ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة لله، وكان فيه من نقص التوحيد والإيمان؛ بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك...) (ص٩٧ ـ ٩٨).

ويمكن أن نتبين هذه الحقيقة وهي حصول السعادة بالعبودية لله دون غيره، وذلك باستقراء أحوال عُبَّاد غير الله صنفاً صنفاً، هل نجد فيهم سعيداً؟ (فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ـ ولو كانت مباحة له ـ يبقىٰ قلبه أسيراً لها تحكم فيه...

تتحكم فيه تحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور، الذي لا يستطيع الخلاص منه، بل أعظم؛ فإنّ أسْر القلب أعظم من أسْر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن؛ فإن من استُعبِد بدنه واستُرِق وأُسر لا يبالي إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك، مطمئناً، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص. وأما إذا كان القلب ـ الذي هو مَلِكُ الجسم ـ رقيقاً مستعبداً، متيَّماً لغير الله؛ فهذا هو الذل، والأسر المحض، والعبودية الذليلة لما استعبد القلبَ) (ص٨٧ ـ ٨٨).

(... وهؤلاء عشَّاق الصور، من أعظم الناس عذاباً وأقلهم ثواباً...) (ص٨٩).

و(هكذا أيضاً طالب المال؛ فإن ذلك المال يستعبده ويسترقه...) (ص٩٢).

ومن كانت عبوديته لله فإنه (... يطلبه من الله، ويرغب إليه فيه، فيكون المال عنده ـ يستعمله في حاجته ـ بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه... من غير أن يستعبده فيكون ﴿هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾...) (ص٩٢).

وإذا علق العبد قلبه بما لا يحتاج إليه: (صار مستعبَداً له، وربما صار معتمداً علىٰ غير الله، فلا يبقىٰ معه حقيقة العبادة لله، ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل علىٰ غير الله، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ: «تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة» (ص٩٢).

تلك هي النظرية في أساسها العام وخطوطها العريضة، ويحسن أن نتبيّن الآن **أهم خصائصها ومزاياها**:

١ ـ فهي أولاً: لا تهمل الجانب الانفعالي (العاطفي) في الحياة الدينية، بل تُعنىٰ به وتعتبره مقوماً أساسياً من الدين، وركناً هاماً من مفهوم العبودية، خلافاً للعرض الجاف، الخالي من العنصر العاطفي، الذي ألفناه لدىٰ علماء الكلام:

(فأهل الإيمان لهم من الذوق والوجد، مثل ما بيَّنه النبي ﷺ بقوله في الحديث الصحيح: «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقَىٰ في النار»، وقال ﷺ: «ذاق طعمَ الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً») (ص٦٧ ـ ٦٨، وانظر ص٩٣ ـ ٩٤).

وهو لا يقيم نظريته علىٰ أساس عاطفي، إلا بعد أن ينقيه من الشوائب والانحرافات (ص١١١ ـ ١٣١).

وهو ـ إذ يعنىٰ بالجانب العاطفي الانفعالي ـ يبرز في نظريته الدينية، وفي تفسير (العبودية): جانب الحب. ويؤيد مذهبه باللغة وبالآيات الكثيرة التي جاء في بعضها مكانة الحب ومنزلته حتىٰ لدىٰ المشركين. (ومن المعلوم أن المؤمن أشد حباً لله، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]) (ص٩٦).

وهو يقدم لنا تحليلاً نفسياً رائعاً لأثر (المحبة) في السلوك الإنساني وكونها دافعاً من أهم الدوافع، ويطبق ذلك في مجال محبة العبد المؤمن لربه ومعبوده، وذلك حيث يقول:

(ومعلوم أن الحب يحرك إرادة القلب، فكلما قويت المحبة في القلب طلب القلب فعل المحبوبات؛ فإذا كانت المحبة تامة استلزمت إرادة جازمة في حصول المحبوبات؛ فإذا كان العبد

قادراً عليها حصلها، وإن كان عاجزاً عنها ففعل ما يقدر عليه من ذلك، كان له أجر كأجر الفاعل) (ص٩٥).

ويقول: (لا يستحق المحبة والخضوعَ التامَّ إلا الله) (ص٤٩) (وكل محبة لا تكون لله فهي باطلة) (ص١٢٠).

فالمحبة عنصر أساسي في العبودية، ولا عبودية بدون محبة قال: (والمقصود: هو أن الخلة والمحبة لله: تحقيق عبوديته. وإنما يغلط من يغلط في هذه من حيث **يتوهمون أن العبودية مجرد ذلّ وخضوع فقط، لا محبة معه**، وأن المحبة فيها انبساط في الأهواء، أو إدلال لا تحتمله الربوبية) (ص١١١ ـ ١١٢).

فهو كما ترىٰ يربط بين المحبة لله وبين العبودية وهما لا تنفكان. وهو يذكر ما يترتب علىٰ التصور الخاطئ للعبودية مجردة من المحبة، وللمحبة مجردة من الخضوع، فيتوهم بعضهم العبودية مجرد ذلّ لا محبة معه، ويتوهمون المحبة انبساطاً في الأهواء وإدلالاً... ولذا نفر قوم من ذكر المحبة إدلالاً بلا خشية، وطلب بعضهم الإمساك عن الكلام في المحبة...

فأساس العبودية الحب لا الخوف. هذا مع العلم أنه يقرر أن الخوف جزء من الدين، وأنه داخل في الإيمان وأنه مما يناسب العبودية الحقة (ص٤٤، ثم ص١١١ ـ ١١٢).

وابن تيمية يُعنىٰ بعرض هذه الناحية والدفاع عنها عناية كبيرة، ثم ينقل قول بعض السلف: (من عبد الله بالحب وحده

فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحِّد) (ص١١٢).

وبعد؛ فهذا الحب ليس شيئاً شكلياً، ولا هو دعوىٰ عريضة لا يصدِّقها العمل، ولا هو محبة معها فعل المخالفات والمعاصي، بل هذا الحب وثيق الرباط بالعمل وبالجهاد في سبيل الله: (ومعلوم أن المحبوبات لا تنال غالباً إلا باحتمال المكروهات، سواء كانت محبة صالحة أو فاسدة) (ص٩٦).

(وقد جعل الله لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول، والجهاد في سبيله، وذلك لأن الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله: من ﴿ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾) (ص٩٤. وانظر ص١١٣ ـ ١١٦).

٢ ـ ومن خصائص نظرية ابن تيمية في (العبودية) فهمه لها بمفهومها الواسع الآفاق، الشامل لجميع مناحي الدين والحياة خلافاً لما عليه أكثر الناس حتىٰ المتدينين اليوم، فهو يقول: (العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الباطنة، والظاهرة...) (ص٤٤).

ويقول: (... فالدين داخل كله في العبادة...) (ص٤٧) وهو يذكر أن من عبادة الله وطاعته: (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بحسب الإمكان، والجهاد في سبيله لأهل الكفر والنفاق...) (ص٦١).

ثم يقول: (وكل ذلك من العبادة) (ص٦٢).

ومن العبادة الأخذ بالأسباب: (فكل ما أمر الله به عباده من الأسباب فهو عبادة) (ص٧٠).

٣ ـ **ونظريته تتضمن القول بوحدة أصول الأديان المنزلة من الله**، وذلك علىٰ وجه صحيح شرعي وعقلي: فقد تبين أن الأنبياء جميعاً بعثوا بأمر واحد هو الدعوة إلىٰ عبادة الله وحده:

يقول عن العبودية: (وبها أرسل [الله] جميع الرسل.... وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾...) (ص٤٤ ـ ٤٥).

ويقول: (وهذا هو حقيقة دين الإسلام الذي أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه، وهو أن يستسلم العبد لله، لا لغيره، فالمستسلم له ولغيره مشرك، والممتنع عن الاستسلام له مستكبر...) (ص٩٩).

(ولما كان الكبر مستلزماً للشرك، والشرك ضد الإسلام، وهو الذنب الذي لا يغفره الله... كان الأنبياء جميعهم مبعوثين بدين الإسلام؛ فهو الدين الذي لا يقبل الله غيره، لا من الأولين، ولا من الآخرين...

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾... وقال تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾...) (ص١٠٣ ـ ١٠٤).

ويقول خلال كلامه علىٰ الإخلاص لله واتباع شريعته: (وهذا هو أصل الدين... وبه أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، وإليه دعا الرسول ﷺ وعليه جاهد...) (ص١٢١).

٤ ـ **وهي نظرية إصلاحية** ـ أعني ذات أثر إصلاحي ـ بما حوت من التحقيق والتوجيه: فقد دفع ابن تيمية ـ خاصة في الجانب النقدي من نظريته، وهو الجانب الذي لا يتسع المجال لعرضه ـ ألواناً من الضلال الذي وقع فيه المسلمون ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، وأنهم يزدادون توغلاً في الإسلام ورقياً في درجات الخاصة، وخاصة الخاصة، مع أنهم يزدادون عنه بعداً، كشأن مستدبر الهدف كلما سار خطوة أو شوطاً ابتعد عن الهدف بقدر سيره!!

فابن تيمية ـ حين بيّن المفاهيم المنحرفة للعبودية، والشوائب المضلة عنها ـ قد قدَّم للمسلمين خيراً كثيراً بما أصلح من حالهم الفكرية والسلوكية.

وهو قد أغلق بالعلم والحجة علىٰ المسلمين باباً، بل أبواباً، من الشر جاءهم من قبل الأهواء المنحرفة والفلسفات الضالَّة، والتخليط، وفوضىٰ المنهج، ووضعِ الشيء في غير موضعه، بل تحريف الكلم عن مواضعه. (انظر مثلاً: ص٥٩).

أ ـ فمن ألوان الضلال والانحراف القول بالشهود ـ ما سموه (الحقيقة) ـ المؤدي إلىٰ الجبر وتعطيل التكاليف الشرعية، والمفضي في الحقيقة إلىٰ الرضا بالمعصية والقعود

عن إنكار المنكر وتغيير الفساد والاحتجاج للذنوب وللشرك!!

ب ـ ومنها (القول بوحدة الوجود)[1] المتضمن كفراً هو شر من كفر أهل الكتاب والمشركين الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ وظل في خصومتهم وحربهم ـ حتىٰ هدىٰ الله من هدىٰ ـ بضعة وعشرين عاماً، هي مدة حياته المباركة ﷺ بعد البعثة.

وهو يكشف عن مفهوم العبودية المعكوس عند القائلين بهذه الضلالة، بل يبيّن انمحاء حقيقة العبودية ومعناها لديهم ـ وهي روح الدين وقوامه ـ وذلك (أعني الانمحاء) تحت سلطان وحدة الوجود.

ج ـ وقد أبان ابن تيمية مدىٰ ضيق النظر عند المعتزلة (القَدَرية) الذين لم يسعهم بعد إثبات الأمر والنهي (الحكم التكليفي) أن يقرّوا بالقدر (الذي هو الحكم التكويني)، كما ضاق نطاق الجبرية الذين ـ حين أثبتوا الحكم التكويني ـ عَجَزوا عن إثبات الحكم التكليفي. (انظر ص٦٣ ـ ٦٤).

د ـ وهو يبيّن أن التحقق بالعبودية لا يُسلك إليه الطريق المخالف للشرع، من الغناء وآلات اللهو التي تهيج محبة مطلقة، بل إنما يُسلك إليه السبيل الشرعي، فكما لا يعبد إلا الله، فإنه لا يعبد الله إلا بالطريق التي شرعها ورضيها.

---

(١) ويلحق به ما يسمونه: (وحدة الشهود، والاتحاد، والحلول) تعالىٰ الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ومن أجمل ما في هذه النظرية بيانه هذين الأصلين وربطهما ربطاً طوعياً بالشهادتين:

فشهادتنا «أن لا إلـه إلا الله» تقتضي ألّا نعبد غيره.

وشهادتنا «أن محمداً رسول الله»: تقتضي أن مهمة الرسالة تبيان الطريقة المرضية لله في عبادته، وأن الخروج عن هذه الطريقة يتنافىٰ مع هذه الشهادة بل ينقضها.

وقد أكَّد هذا المعنىٰ بآيات بيّنت أنه يُشترط **شرطان في العمل** ليكون مقبولاً:

١ ـ أن يكون صالحاً، ولا يكون صالحاً إلا ما كان موافقاً لشرع الله الذي جاء به نبيه ورسوله ﷺ.

٢ ـ أن يكون لا يراد به إلا الله.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ الآية الأخيرة من سورة الكهف. (تراجع الصفحات: ٧١، ١٢٠ و١٤٨).

يقول ابن تيمية في نقد الطريق المنحرفة: (. . . ولهذا يميل هؤلاء، ويُغرَمون بسماع الشعر والأصوات [والآلات الموسيقية] التي تهيج المحبة المطلقة، التي لا تختص بأهل الإيمان. . .، وهؤلاء هم الذين يتبعون أذواقهم ومواجيدهم، من غير اعتبار لذلك بالكتاب والسنّة، وما كان عليه سلف الأمة) (ص٦٨ ـ ٦٩).

ويقول: (وطريق الحقيقة عندهم: هو السلوك الذي لا يتقيد صاحبه بأمر الشارع ونهيه، ولكن بما يراه هو ويذوقه ويجده

في قلبه مع ما فيه من غفلة عن الله جلَّ وعلا، ونحو ذلك) (ص٦٦ ـ ٦٧).

هـ ـ وهو يرىٰ أن الاختيار من الدين ـ بأخذ بعضه وترك بعضه ـ من الضلال، فيقول خلال كلامه علىٰ الذين يرون إسقاط التدبير: (ومن هؤلاء طائفة ـ هم أعلاهم عندهم قدْراً ـ وهم مستمسكون بما اختاروا بهواهم من الدين في أداء الفرائض المشهورة، واجتناب المحرمات المشهورة، لكن يَضِلُّون بترك ما أُمروا به من الأسباب التي هي عبادة، ظانّين أن العارف إذا شهد القدر أعرض عن ذلك، مثل من يجعل التوكل منهم أو الدعاء منهم ونحو ذلك من مقامات العامة دون الخاصة، بناء علىٰ أن من شهد القدر، علم أن ما قُدِّر سيكون، فلا حاجة إلىٰ ذلك، وهذا ضلال مبين...) (ص٦٩ ـ ٧٠).

وقد ذكَّر ابن تيمية ناصحاً باتباع أسلوب القرآن والأخذ بالعلم للوصول إلىٰ الحقائق الشرعية والوقوف عندها وذلك حين كلامه علىٰ المفاهيم المختلفة لما يسمىٰ (الفناء) فقال: (بل الكُمَّلُ [من المؤمنين الذين لا يهتدون إلا بهدي الكتاب والسنّة] تكون قلوبهم ليس فيها سوىٰ محبة الله وإرادته وعبادته؛ وعندهم من سَعَةِ العلم والتميز ما يشهدون الأمور علىٰ ما هي عليه، بل يشهدون المخلوقات قائمة بأمر الله، مدبَّرة بمشيئته، بل مستجيبة له، قانتة له، فيكون لهم فيها تبصرة وذكرىٰ، ويكون ما يشهدونه من ذلك مؤيِّداً ومُمِدّاً لما

في قلوبهم من إخلاص الدين، وتجريد التوحيد له، والعبادة له وحده لا شريك له.

وهذه هي الحقيقة التي دعا إليها القرآن، وقام بها أهل تحقيق الإيمان والكُمَّلُ من أهل العرفان، ونبينا ﷺ إمام هؤلاء وأكملهم) (ص١٣١).

و ـ وقد بيّن الطريقة الصحيحة في ذكر الله وهي ذكره في جمل تامة وأورد حديث رسول الله ﷺ: «أفضل الذكر: لا إلـٰه إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله» (ص١٣٦).

وناقش طريقة الذكر بالاسم المفرد وحده مناقشة علمية رصينة ونبّه إلىٰ أنه (قد وقع بعض من واظب علىٰ هذا الذكر بالاسم المفرد وبـ (هو) في فنون من الإلحاد، وأنواع من الاتحاد) (ص١٣٨).

٥ ـ **وابن تيمية في** هذه النظرية ـ عدا كونه مصلحاً دينياً أو مصلحاً للعقيدة الدينية ـ هو **مصلح أخلاقي واجتماعي** إذ يقدم معالجة ناجعة لبعض المشكلات النفسية والانحرافات الجنسية.

وما أحوج الأمة التي تملأ أغانيها وإذاعتها بالحب الجنسي، وهي غافلة عن خطره وضرره في أبنائها وبناتها وكيانها العام، ما أحوجها إلىٰ أن تعي مثل هذا الكلام الطيب الذي يقدمه (ص٨٨ ـ ٩٠)، خاصة والعدو محيط بها من كل جانب والخطر محدق بها من كل جهة[1].

---

(١) جاءت هذه الملاحظة والنصيحة في أوائل عام ١٣٨٢هـ {في الطبعة الأولى}، =

وما أحوجها أيضاً، وهي من جهة أخرىٰ علىٰ أبواب خطر آخر، وهو معالجة أمراضها النفسية والاجتماعية بطرائق الغرب في العلاج النفسي القائم علىٰ الإلحاد والتنكُّر لهداية الله وحكمة النبوة، ما أحوجها إلىٰ الحذر من أن تنصرف ـ عن ذلك الهدىٰ ـ إلىٰ تلك (العيادات السيكولوجية) التي يتولاها أحياناً الدجالون وأحياناً المنحرفون الذين يحتاجون هم أنفسهم للمعالجة، وجدير بها أن تنصرف عن هذه الأساليب الملتوية إلىٰ علاج النبوة المستمد من الخالق، وإلىٰ الحكمة المستمدة من النبوة:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك].

أليس من الواجب أن نفيد من توجيه الذي ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه]، ﴿ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: و٧٣. سبأ: ١] الـ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ [آل عمران: و١٥٤. المائدة: ٧. الأنفال: ٤٣. هود: ٥. لقمان: ٢٣. فاطر: ٣٨. الزمر: ٧. الشورىٰ: ٢٤. الحديد: ٦. التغابن: ٤. الملك: ١٣]

٦ ـ وتبدو قيمة **نظرية ابن تيمية** من النواحي الآتية:

= وما تزال الحال هي الحال ـ علىٰ ما يبتغي العدو وينكر الناصح المشفق ـ ونحن الآن في عام ١٣٨٩هـ {وفي الطبعة السابعة ١٤٢٦هـ} ـ علىٰ ما كنا فيه، مع ما أصابنا من أحداث ضخام فيها لمن اعتبر عبرة زاجرة. ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس]، والله المستعان، وواجب التذكير مستمر. كتب الله الهداية لجميع المسلمين.

أ ـ **فهي نظرية قائمة علىٰ الملاحظات والحقائق النفسية**، وقد مرت أمثلة لهذا الجانب ومن ذلك قوله: (... فظنوا أن كمال المحبة أن يحب العبد كل شيء، حتىٰ الكفر والفسوق والعصيان، ولا يمكن أحد أن يحب كل موجود، بل يحب ما يلائمه وينفعه، ويبغض ما ينافيه ويضره) (ص١١٦).

وهو هنا يردُّ المنحرفين إلىٰ الأوضاع النفسية السليمة والحالات الطبيعة السويَّة.

ب ـ وهي **تتضمن توجيهات تربوية** قيمة، ومن ذلك ما يمكن أن يعتبر قاعدة أخلاقية وتربوية عامة علىٰ أساس حب الله: (والإنسان لا يترك محبوباً إلا بمحبوب آخر يكون أحبَّ إليه منه، أو خوفاً من مكروه، فالحبُّ الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحبِّ الصالح، أو بالخوف من الضرر...) (ص٩٠).

ج ـ **وهذه النظرية لها** ـ عدا عن جانبها النفسي والتربوي ـ **مداها الاجتماعي والسياسي**: وقد مرَّ وصفه للمسيطر المتسلط، وهو من أحكم وأدقِّ ما يوصف به، حيث قال: إنه مستعبِد لمن دونه، وعبد لمن يعينونه علىٰ مقاصده، يطلب رضاهم بما يبذل لهم من المال ويغضي عن مظالمهم للناس، وهو بذلك يمدُّ لهم في البغي والطغيان. وقد بيّن أن كل من ترك عبودية الله فهو مستعبَد لغيره من المخلوقات شاء أم أبىٰ.

٧ ـ **ومن أهم خصائص نظرية ابن تيمية في (العبودية)**

كونها موفِقة ـ علىٰ هدىً وبصيرة ـ بين العقل والنقل، بين الدين والفلسفة، وبتعبير آخر ـ هو لابن تيمية ـ بين العقل الصريح[١] والنقل الصحيح، كما هو الاتجاه العام للفكر التيمي، أو للفلسفة التيمية إن صح هذا التعبير.

وهذا التوفيق بين العقل والنقل مبثوث في الرسالة كلها، بل هو منهجها وروحها، ومع ذلك يراجع علىٰ سبيل المثال مناقشته للقائلين بالاتحاد (ص١٢٧ ـ ١٢٩).

فهو يبين أن دعوىٰ (الاتحاد) إن صدق فيها أحد، فليست أكثر من اضطراب عقلي، أو اضطراب في التمييز علىٰ حدّ تعبيره.

أما أن يكون اتحاد في واقع الأمر وحقيقته فهذا محال؛ قال: (... وظنوا أنه اتحاد، وأن المحب يتحد بالمحبوب،

---

(١) ويعبر عنه أحياناً ابن تيمية بـ (العقل السليم) كما ورد في صفحة (٩٧)، ولابن تيمية كتاب كبير عنوانه «بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول»، ويسمىٰ أيضاً «درء تعارض العقل والنقل» وكان مطبوعاً {بعضه} علىٰ حواشي «منهاج السنة» له. وصدر جزآن فقط ـ فيما أعلم ـ من الطبعة الثانية بمطبعة أنصار السنّة بمصر.

{ثم طبع كاملاً بتحقيق د. محمد رشاد بن توفيق سالم (١٣٤٧ ـ ١٤٠٧هـ) رحمه الله}. الذي قام ببحث وافٍ في الفكر التيمي عامة، وفي هذا الجانب العظيم من فلسفته بوجه خاص، وقد كانت رسالته للحصول علىٰ الدكتوراه في مذهب ابن تيمية في التوفيق بين العقل والنقل.

حتىٰ لا يكون بينهما فرق في نفس وجودهما! وهذا غلط، فإن الخالق لا يتَّحد به شيء أصلاً؛ بل لا يمكن أن يتَّحد شيء بشيء، إلا إذا استحالا وفسدت حقيقة كلٍّ منهما، وحصل من اتحادهما أمر ثالث لا هو هذا ولا هو هذا...) (ص١٢٨).

٨ ـ وهو في عرضه للنظرية والدفاع عن الحق الذي تضمنته **معتدل لا يغالي**، يقبل ما كان صواباً مما عند الآخرين ويردُّ الخطأ، ويلتمس السبب لوقوع من وقع فيه حتىٰ ولو كان كفراً صريحاً، فيقول مثلاً في نوع من الفناء وهو ألّا يحبَّ العبد إلا ما يحبه الله ولا يرضىٰ إلا ما يرضي الله: (وهذا المعنىٰ ـ إن سُمي فناءً، أو لم يُسمَّ ـ هو أول الإسلام وآخره، وباطن الدين وظاهره) (ص١٢٧).

ويقول في من يُسقطون التكاليف: (وقول هؤلاء كفر صريح، وإن وقع فيه طوائف لم يعلموا أنه كفر) (ص٦٤)، ثم يلتمس العلاج الشرعي لهم وهو ما أوجبه الله علىٰ العلماء من البيان والإقناع بالحجة، ثم يبيّن متىٰ يؤخذون بالجزاء وأنه يكون بعد البيان من أهل العلم والإصرار والعناد علىٰ مخالفة الحق من جهة الآخذ بالضلال، فيقول: (فمن لم يعرَّف ذلك عُرِّفه... فإن أصرَّ علىٰ اعتقاد سقوط الأمر والنهي، فإنه يُقْتَل...) (ص٦٥).

وهو في كثير من الأحيان يشخِّص الداء بذكر مظاهره، ثم يبين أسباب الوقوع فيه، ثم يذكر العلاج.

٩ - **وابن تيمية ينزع نزعة مثالية في نظريته**، نزعة تردُّ علىٰ الإنسانية كرامتها، وتحتفظ للإنسان بمنزلته العليا فوق عالم الكائنات الحية التي لا تطاوله في منزلته ولا تنازعه في قمته التي وضعه الله فيها بما وضع فيه من عنصر العقل والإدراك، وابتغاء الحق والخير، وأهلية التكليف.

يقول ابن تيمية: (والقلب خُلِقَ يحبُّ الحق ويريده ويطلبه، فلما عرضت له إرادة الشر طلب دفع ذلك، فإنها تفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدغل) (ص٩٠ - ٩١).

ويقول: (والقلب فقير بالذات إلىٰ الله من وجهين: من جهة العبادة؛ وهي العلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل؛ وهي العلة الفاعلة. فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا ينعم ولا يُسَرُّ، ولا يلتذ ولا يطيب ولا يسكن، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه، والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات، لم يطمئن ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلىٰ ربه بالفطرة، ومن حيث هو معبودُه ومحبوبه ومطلوبه..) (ص٩٧).

وهذه النزعة في الوقت نفسه ليست نزعة خيالية تهمل الواقع ولكن ترتفع به عن طريق (التسامي) أو (الإبدال) مما لمحه علماء النفس والتربية وما عرفوا الطريق الحق إليه: (والأنبياء - كما يقول ابن تيمية في كتاب «النبوات» - قد بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها لا بتبديلها وتغييرها).

وقد مر قوله: (ولا يمكن أحد أن يحب كلَّ موجود، بل يحب ما يلائمه...) (ص١١٦).

وقوله: (الإنسان لا يترك محبوباً إلا بمحبوب آخر..) (ص٩٠).

ومثل ذلك قوله في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم»: (إن النفوس لا تترك شيئاً إلا بشيء، وإن النفس خلقت لتعمل لا لتُترك)[١].

١٠ ـ هذه نظرية ابن تيمية في (العبودية) وهي ـ كما قلنا ـ **نظرية في الدين.**

وقد يقول قائل: إن العبودية ليست المحبة والتذلل ـ كما ذكر ابن تيمية ـ فقط. ولا بد أن يلحظ فيها استنادها إلىٰ (الإيمان).

وهذا الكلام حق وهو يؤكد من الدين جانبه الأصلي، جانب الاعتقاد، إلا أن العبادة من حيث هي ـ أعني في مفهومها العام ودلالتها اللغوية الأصلية ـ أمر يتعلق بالسلوك بالدرجة الأولىٰ.

أما العبادة بالمعنىٰ الديني ـ أو في المجال الديني ـ فلا بد أن يلحظ فيها قيامها علىٰ العقيدة أي علىٰ الإيمان بالقوة

---

(١) يراجع كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» لأبي الحسن النَّدْويّ {١٣٣٢ ـ ١٤٢٠هـ} ط٢ ص١٤٤، وفيه كلام جيد بشأن النزعة الخيالية غير الفطرية لدىٰ غير المسلمين.

الغيبية. ولذا ينبغي التماس أساسها في موضوع الإيمان.

والنظرية الكاملة في الدين تتكون في الحقيقة من نظريتين:

١ ـ نظرية: الإيمان.

٢ ـ نظرية: العبودية.

الأولىٰ: تتعلق بالفكر والاعتقاد. والثانية: تتعلق بالسلوك والعمل. وهما جانبا الحياة الدينية.

ومن شاء أن يستكمل نظرية ابن تيمية في (الدين) فيحسن أن يرجع إلىٰ كتبه الأخرىٰ ومنها: كتاب «الإيمان»[1]، وكتاب «النبوات».

١ ـ تلك هي النظرية من ناحية محتواها ومضمونها، أما من ناحية (أسلوبها) أو (شكلها) فلعل أهم خصائص النظرية (الشكلية) **أنها قائمة علىٰ أصول منهجية**، وبتعبير آخر منهجيتها. وهي بمنهجيتها تجدِّد في حياة المسلمين الفكرية المنهج الأصيل في فهم الإسلام وتناول قضاياه. وهي من هذه الوجهة ذات أثر إصلاحي هام كالتراث التيمي كله، ذلك أن ابن تيمية ظهر في الوقت الذي امتاز بأمرين:

أ ـ طغيان الفلسفات المنحرفة والأفكار الضالّة واختلاط

---

(١) طبعه المكتب الإسلامي للمرة الأولى سنة ١٣٨١هـ بدمشق، من غير ذكر اسم المحقق والمخرِّج.

ثم طُبع بعد ذلك مرات، وذُكر أنه من تحقيق الشيخ الشاويش، وتخريج الشيخ الألباني، رحمه الله.

الحقائق والأباطيل، والتباس الأصيل من الدين بالدخيل.

ب ـ ضعف روح المنهج عند كثير من أهل العلم في الوقت نفسه.

ومزية ابن تيمية بصورة عامة، وبالإضافة إلىٰ ما في تراثه من السَّعَة والعمق، بل بما فيه من السَّعَة والعمق، **الكشف عن وجه الحق فيما اختلط علىٰ الناس** بأسلوبه الرصين ومنهجه المحكم[١]. ولذا يمكن أن يعتبر **ابن تيمية من كبار أعلام الفكر النقدي المنهجي**. كما أنه من أعلام الفكر الموسوعي في الإسلام.

ولا يتسع المجال هنا لأكثر من أن نمر بمنهج ابن تيمية في بنائه لنظرية العبودية.

٢ ـ فما هي **الأصول المنهجية** التي اصطنعها ابن تيمية فيها؟

أ ـ إن نظريته قائمة علىٰ الرجوع إلىٰ النصوص الثابتة وجمعها واستيحائها في كل صغيرة وكبيرة من أجزائها، فهي نظرية مخضلة أو مشبعة بالفهم الدقيق والاستيحاء الدائم للنصوص الشرعية من كلام الله وكلام رسوله ﷺ. وهو دائماً يستدل بالنص علىٰ ما يقول بل كأنه إنما يفسر النص ويذكر مضمونه بين يدي إيراده. ثم يذكره فينكشف معناه.

---

(١) ونحن اليوم ـ بعد أن غُلبنا لأوربة {وأمريكا} سياسة وحضارة وفكراً ومنهجاً ـ أصبحنا بأشد الحاجة إلىٰ أن نعرف منهجنا الإسلامي الأصيل.

وهو دَرَّاكٌ بعيد الغور لروح النصوص ودلالالتها. وهو بحق قد جاء بفلسفة إسلامية صميمة، ومن الخطإ الشائع ذكر أمثال الفارابي {٢٦٠ ـ ٣٣٩هـ} وابن سينا {٣٧٠ ـ ٤٢٨هـ} وإخوان الصفا في فلاسفة الإسلام؛ لأنهم لم يقيموا فلسفتهم علىٰ عمود الإسلام، بل قد ناهضوه وعمل (إخوان الصفا)؛ بمنهجهم وفلسفتهم، لهدمه ديناً ودولة.

وليست نسبتهم إلىٰ الإسلام أكثر من أنهم وُجدوا في بيئة الإسلام وفي زمن سلطان الإسلام[1].

وحكمة ابن تيمية هي حكمة القرآن وحكمة النبوة، معروضةً من خلال المشكلات الفكرية التي عاصرها وعالجها، وقد جاء بفكر أصيل سبق به زمانه.

واستيحاء ابن تيمية للآيات القرآنية يذكرنا بدعوة محمد إقبال إلىٰ استمداد الحكمة من القرآن، وهو كتاب الحكمة، ومصدر الحياة، ومنبع القوة. ويذكرنا بعتب إقبال علىٰ (المسلم الذي لا يستمد حياته من حكمة القرآن رأساً)[2].

---

(١) وابن تيمية قد زيف انحرافاتهم، وبيّن تناقض أقوالهم بمنهجه العقلي النقلي، والشرعي الفلسفي. وهذا الجانب النقدي يؤلف شطر فلسفته. وممن نبّه إلىٰ أن هؤلاء ليسوا هم فلاسفة الإسلام، وأن فلسفتهم ليست هي الفلسفة الإسلامية: الشهيد سيد قطب {١٣٢٧ ـ ١٣٨٦هـ} رحمه الله في كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام».

(٢) يراجع كتاب «روائع إقبال» للنَّدْوي.

ومن الأمثلة الدقيقة لاستيحاء ابن تيمية من النصوص قوله: (فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب. . .) (ص٨٨). فهو قد استفاده من الحديث الشريف: «ليس الغنىٰ عن كثرة العرض ولكن الغنىٰ غنىٰ النفس».

والخطوة الثانية في نظريته قد استفاد فيها ـ كما رأيت ـ من الحديث الشريف: «أصدق الأسماء: حارث وهمام» (ص١٠٠).

وهكذا فابن تيمية يجدد عرض حكمة القرآن وحكمة النبوة علينا، وما أكثر استنباطه منهما!

هذا ومن المعلوم أن **(النص) في قضايا الدين مثل (التجربة) في ميدان العلوم الطبيعية: يقف العالم أمامهما ويستنطقهما ولا يفرض عليهما رأياً سابقاً.**

ب ـ **وهي نظرية قائمة علىٰ تحكيم اللغة** لا علىٰ مصادمتها أو الاحتيال عليها، كما يفعل الآن بعض الجهلة والمنحرفون، وكما فعل الباطنيون من قبل، إذ تجاهلوا في سبيل مآربهم، من تقويض سلطان الإسلام علىٰ نفوس أهله، وهدم دولة المسلمين، تجاهلوا كل مقتضيات اللغة وقواعدها.

وقد بدأ كلامه علىٰ العبودية بتحليل لغوي انتهىٰ منه إلىٰ أن العبودية هي كمال المحبة مع كمال الخضوع والتذلل. فمن كان خاضعاً دون محبة لم يكن عابداً ومن كان محباً دون خضوع ليس من العبودية في شيء، ومن هنا قال: إن العبودية الحق لا تكون إلا لله. (تراجع الصفحات: ٤٩ ـ ٥١ و١٠٧).

وفي رسالته حقائق وأبحاث لغوية ممتعة. وهو هكذا دائماً مع اللغة ومع قواعدها، ومن مزاياه المشهورة ما كان عليه من العلم باللغة العربية إلىٰ الحدِّ الذي لا يدانيه فيه إلا الأفذاذ.

ج ـ ومن أبرز معالم منهج ابن تيمية في الكشف عن الحق وبيانه والبرهان عليه اعتماد **(المنهج التاريخي)**:

فهو يلاحظ التطور الذي طرأ علىٰ أوضاع المسلمين الثقافية والعملية، وكيف كانوا وإلىٰ أي شيء صاروا[١]، وهو بهذا يشتق دليلاً شرعياً تاريخياً يتلخص بالفكرة الآتية: الدين الحق ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، وهذه قضية مقررة تؤيدها البراهين الكثيرة والآيات والأحاديث، ومنها قوله ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» (رواه مسلم {٢٥٣٣})، فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون بعدهم ديناً. وكأنه يقول للمنحرفين: إن ما أنتم عليه من هذا القول، أو العمل في الدين لم يجئ به الرسول ﷺ ولم يعرفه السلف (المسلمون الأولون). بل هو ما كان عليه الجاهليون، وهو ما جاء الإسلام لنقضه والقضاء عليه وتخليص الناس من شره، والنظر في التاريخ يشهد لذلك، وهو يقضي بيننا وبينكم.

---

(١) يقول الأستاذ محمد كرد علي {١٢٩٣ ـ ١٣٧٢هـ} في ترجمته لابن تيمية: (ولو ادعينا أنه لم يأتِ عالم [مثله] يعرف ما طرأ علىٰ الدين ومذاهب أهله فيه ساعة ساعة ويوماً يوماً ما قدر أحد علىٰ ردِّ دعوانا) ص١٦ ط. المكتب الإسلامي.

وفي هذا (المنهج التاريخي) هداية لمن أنصف وأراد الله له الخير. وهذا مثال من استعانته بهذا المنهج:

فهو بعد أن زيف أقوال القائلين بما يسمونه (الحقيقة) و(إسقاط التكاليف) يقول: (لم يكن في السلف من هؤلاء أحد) (ص٦٤).

(وقد كثرت مثل هذه المقالات في المستأخرين. وأما المتقدمون من هذه الأمة فلم تكن هذه المقالات معروفة فيهم. وهذه المقالات، هي محادَّةٌ لله ورسوله، ومعاداة له، وصدٌّ عن سبيله، ومُشاقَّة له...) (ص٦٥).

ثم يقول: (ولا ريب أن المشركين الذين كذَّبوا الرسول يترددون بين البدعة المخالفة لشرع الله وبين الاحتجاج بالقدر علىٰ مخالفة أمر الله) (ص٦٥).

وقد استخدم (**المنهج التاريخي**) حين حقق القول فيما يسمونه بالفناء، فقبل ما جاء به الرسول ﷺ وكان عليه أصحابه، ورفض ما لم يكن كذلك قال: (وهذا الفناء كله فيه نقص. وأكابر الأولياء كأبي بكر وعمر والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لم يقعوا في هذا الفناء، فضلاً عمن هو فوقهم من الأنبياء، وإنما وقع شيء من هذا بعد الصحابة...) (ص١٢٩).

وكذلك فعل حين حقق القول في عدم شرعية ذكر الله بالاسم المفرد، قال: (ولم يذكر ذلك أحد من سلف الأمة) (ص١٣٧).

د ـ ومن ذلك، وهو في الحقيقة مما يتردد بين: (المنهج اللغوي) و(المنهج التاريخي) تنبيهه إلىٰ تغيُّر معاني الألفاظ، وتغلُّب بعض الاصطلاحات علىٰ بعض، أو بالأحرىٰ حمل الألفاظ القديمة لمعاني جديدة.

وقد نبّه الغزالي في «الإحياء» (١/ ٥٣ ـ ٥٦) إلىٰ ما عرض من التطور لبعض الألفاظ والمصطلحات الشرعية في فصل بعنوان (بيان ما بُدِّل من ألفاظ العلوم). وابن تيمية يستعمل هذا المنهج في مختلف المجالات. ومن ذلك مجال الاصطلاحات اللغوية. تراجع مناقشته لمعنىٰ (الاسم) في موضوع الذكر (ص١٣٨ ـ ١٤٥).

هـ ـ ويلاحظ بصورة عامة أن ابن تيمية في إصلاحه المنهجي (أعني إصلاحه لفوضىٰ المنهج الفكري) لم يعالج انحراف المنهج لدىٰ الباطنية وأمثالها باعتماد المنهج الظاهري، مثلاً، ولم يعالج شطط غلاة القياسيين بإنكار القياس، وبهذا يكون كمن يعالج الداء بالداء، وإنما جاء بردِّ الأمور إلىٰ طبيعتها، فكان منهجه الفكري أخلد، وأبقىٰ، وأبلغ أثراً في الإصلاح ـ كأي علاج صحيح ـ، فإن الذين يعالجون الانحراف بالانحراف لا يزيدون علىٰ أن يجعلوا في حياة الناس انحرافين بديل الانحراف الواحد! وتظل الأمة من بعدهم بحاجة إلىٰ علاج.

ولذا كان سبيله العودة بأصول منهج الفكر الإسلامي إلىٰ الأوضاع الطبيعية السوية، في جميع مناحيه.

وأكد بصدد القياس أنه (لم يرد في الشرع الإسلامي ـ أي: في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ ـ أمر، ولا نهي يخالف القياس الصحيح... فكل نص في الإسلام: منطبقٌ علىٰ مقتضىٰ العقل والحكمة وموافق لما يوجبه القياس) أي: القياس الصحيح[1].

٣ ـ وبياناً لمنهجه الذي أقام عليه نظريته في (العبودية) فخلَّصها من الشوائب والانحرافات والمفاهيم الخاطئة التي طرأت علىٰ الفكر الإسلامي، نذكر ما يشير إليه هو من **أصول فكرية** خلال كلامه:

أ ـ فهو يقول: (وأصل كل ضلال من ضلَّ إنما هو بتقديم قياسه علىٰ النصِّ المُنْزَل من عند الله، وتقديم اتباع الهوىٰ علىٰ اتباع أمر الله، فإن الذوق والوجد، ونحو ذلك هو بحسب ما يحبه العبد ويهواه، فكل محب له ذوق ووجد بحسب محبته وهواه) (ص٦٧).

وفي هذا الأصل يبين أهمية النص، وموقف العالم منه، ويضع حدّاً للتفريق بين ما هو (ذاتي) يختلف من فرد إلىٰ آخر، وبين ما هو (موضوعي) تتلاقىٰ عنده أفكار العلماء ذوي الاختصاص.

---

(١) يراجع كتاب «القياس في الشرع الإسلامي» الذي نشره الأستاذ السيد محب الدين الخطيب {١٣٠٣ ـ ١٣٨٩هـ}، وهو مجموع مما كتبه في هذا الباب ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية. وانظر مجلة «الزهراء» (٤/ ٥٦٩).

ب ـ ويقول: (وجماع الدين أصلان: ألّا نعبد إلا الله، ولا نعبده إلا بما شرع، لا نعبده بالبدع، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف]، وذلك تحقيق الشهادتين: شهادة أن لا إلـٰه إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله.

ففي الأولىٰ: ألّا نعبد إلا إياه.

وفي الثانية: أن محمداً هو رسوله المبلِّغ عنه، فعلينا أن نصدق خبره، ونطيع أمره. وقد بيّن ﷺ لنا ما نعبد الله به، ونهانا عن محدثات الأمور، وأخبر أنها ضلالة. قال تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة]. . .) (ص١٤٨).

ومثل ذلك قول ابن تيمية: (والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الأسماء مقصودها واحد، ولها أصلان:

أحدهما: ألّا يعبد إلا الله.

الثاني: ألّا يعبده إلا بما أمر وشرع، ولا يعبده بغير ذلك من الأهواء والظنون. . .) (ص٧١).

ويقول: (فكل عمل أريد به غير الله لم يكن لله، وكل عمل لا يوافق شرع الله لم يكن لله، بل لا يكون لله إلا ما جمع الوصفين: أن يكون لله، وأن يكون موافقاً لمحبة الله ورسوله وهو الواجب والمستحب. . .

وهذا الأصل هو أصل الدين، وبحسب تحقيقه يكون تحقيق الدين، وبه أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، وإليه دعا الرسول، وعليه جاهد، وبه أمر، وفيه رغب، وهو قطب الدين الذي تدور عليه رحاه) (ص١٢٠ ـ ١٢١).

ج ـ وابن تيمية ﵀ ينبه إلىٰ المنهج الخاطئ في فهم الدين، وتناول قضاياه، وينبه إلىٰ أنه ليس من (التفويض) أبداً اعتقاد نقيض مدلول اللفظ، فيقول: (وهؤلاء... عمدتُهُم اتّباع آرائهم وأهوائهم، وجَعْلُهم ما يرَونه ويهوَونه حقيقة، ويأمرون باتباعها دون اتباع أمر الله ورسوله، نظير بدع أهل الكلام من الجَهْمية وغيرهم، الذين يجعلون ما ابتدعوه من الأقوال المخالفة للكتاب والسنّة حقائق عقلية يجب اعتقادها، دون ما دلت عليه السمعيات.

ثم الكتاب والسنّة، إما أن يحرِّفوا القول فيهما عن مواضعه، وإما أن يعرضوا عنه بالكلية، فلا يتدبَّرونه ولا يعقلونه، بل يقولون: (نفوض معناه إلىٰ الله) مع اعتقادهم نقيض مدلوله!!) (ص٦٧).

د ـ ومن الأصول التي اعتمدها عدم قبول المتناقضات، وتقديم (المبادئ) علىٰ (الرجال)، وبالتالي عدم التسليم والقبول بما نقل عن المشايخ مما يخالف الدين: فهو (إما كذب عليهم وإما غلط منهم) (ص١١٥، وانظر ص١١٩ و١٢٦).

وقد رأىٰ أن القبول بما قال السابقون كيف كان، إنما هو ديدن بعض أهل الكتاب، وهو لا يليق بالإسلام الذي برأه الله

من الاختلاف والتعارض: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]، وحفظ أصوله، وألهم أهله إلىٰ منهج البحث فيه، وجعله حجة علىٰ الناس إلىٰ يوم القيامة، ولم يرض من أحد غيره.

وهكذا طارد ابن تيمية ـ بالحجة والمنطق ـ مظاهر السخف والانحراف التي لحقت بعقول المسلمين وعقائدهم وأعمالهم، سواء في موضوع (العبودية) أو غيرها. وخلَّص الفكر من مثل هذه السخافات بقوله: (وكثير من السالكين سلكوا في دعوىٰ حب الله أنواعاً من أمور الجهل بالدين: إما من تعدي حدود الله، وإما من تضييع حقوق الله، وإما من ادعاء الدعاوىٰ الباطلة التي لا حقيقة لها، كقول بعضهم: أيُّ مريد لي ترك في النار أحداً فأنا بريء منه!!

فقال الآخر: أي مريد لي ترك أحداً من المؤمنين يدخل النار فأنا منه بريء!!).

قال ابن تيمية: (فالأول: جعل مريده يُخرج كل من في النار.

والثاني: جعل مريده يمنع أهل الكبائر من دخول النار.

ويقول بعضهم: إذا كان يوم القيامة نصبت خيمتي علىٰ جهنم حتىٰ لا يدخلها أحد.

وأمثال ذلك من الأقوال التي تُؤْثَرُ عن بعض المشايخ المشهورين، وهي إما كذب عليهم، وإما غلط منهم) (ص١١٤ ـ ١١٥).

لقد كان اطلاعي علىٰ هذه الرسالة ـ أول مرة ـ غنماً، وكان خبر تجديد طبعها بشرىٰ. فوجدت أقل الواجب ـ عندما دعاني المكتب الإسلامي إلىٰ تقديمها بعد طبعها ـ أن أقرأها من جديد في هذه الطبعة، وأقدمها، وإن كان غيري من أهل العلم أولىٰ مني بهذا التقديم. وإني لأرجو أن يتيح الله لها أيضاً طبعة جديدة محققة علىٰ نسخة مخطوطة أو أكثر في الظاهرية أو غيرها.

وأنا أخشىٰ عادة من المقدمة ـ فكيف وقد طالت ـ أن تقطع عن قراءة ما بعدها، كما أني أخشىٰ أن تحول بين القارئ وبين روح النص المقدَّم وحقائقه. ولذا أوصي القارئ الكريم ألّا يقلدني في رأي ارتأيته ولا في فهم فهمته، والحق علىٰ خلاف ما رأيت. إلا أني أردت فائدة القارئ علىٰ كل حال، وأسأل الله لي وله الهداية والتوفيق إلىٰ الحق من الأفكار والخير من الأعمال.

وإني أعتقد أن هذه الرسالة من أفضل ما يهدىٰ لأرباب الفكر وأهل العلم وطلاب الحق والخير. وأنا أرجو لشبابنا خيراً كثيراً في قراءتها وقراءة أمثالها من تراث ابن تيمية، ذلك المجدِّد والمصلح العظيم.

وَبَعْد؛ أليست دراسة التراث التيمي ـ وقد أربىٰ علىٰ ثلاثمئة مؤلَّف ـ ضرورة من ضرورات نهضتنا، وذلك لبنائها علىٰ أصولنا ـ لا علىٰ أصول غيرنا ـ؟.

أوَليس عجيباً أن تبقىٰ جامعاتنا في العالم الإسلامي والوطن

العربي، وكليات الشريعة، والحقوق، والآداب والفلسفة، والتربية، فيها؛ مصروفة عن دراسة هذا التراث وإحيائه ونشره والإفادة منه، مع ما يقدمه من العون ليكون تفكيرنا أكثر غنىً وازدهاراً وأصالة ونقاء؟!

وهل ننتظر ـ للقيام بهذا الواجب ـ إشارة من أوربة أو غير أوربة، ويكون شأننا مع هذا المفكر الأصيل، والعبقري العظيم، كشأننا حتىٰ الآن ـ في الغالب ـ لا ننتبه إلىٰ عظمة العظيم فينا إلا إذا نبهنا الغرب إليه، أو لا نقر لإنسان بالعظمة حتىٰ يكون من الغرب أو من أولياء الغرب؟!...

هذا ما يسّر الله لنا، والخير أردنا، وآخر دعوانا أنِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[1].

يوم الخميس ٢٥ المحرم ١٣٨٢هـ
الموافق ٢٧/٦/١٩٦٢م

---

(١) وقد نقحت هذه المقدمة علىٰ فترات آخرها يوم الثلاثاء ١٥ جمادىٰ الأولىٰ سنة ١٣٨٩هـ.

{وقد سرقها من سرق الكتاب، قبل أن تُنقح وتُصحح، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

واليوم نعيد نشرها مع هذا الكتاب، وقد مضىٰ عليها ربع قرن، والأمة ما زالت بحاجة إلىٰ ما كتبه أستاذنا الفاضل الشيخ عبد الرحمـٰن البانيْ ـ حفظه الله تعالىٰ ـ. زهير الشاويش.

رِسَالَةُ العُبُودِيَّة

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله(١).

أما بعـد: فقد سئل شيخ الإسلام وعلم الأعلام، ناصر السنّة، وقامع البدعة: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، فما العبادة؟ وما فروعها؟ وهل مجموع الدين داخل فيها أم لا؟ وما حقيقة العبودية؟ وهل هي أعلىٰ المقامات في الدنيا والآخرة، أم فوقها شيء من المقامات؟ وليبسط لنا القول في ذلك.

---

(١) هذه القطعة ليست في كل الأصول، وهي من خطبة الحاجة التي كان شيخ الإسلام يفتتح بها بعض خطبه اتباعاً للسنّة. وانظر: «خطبة الحاجة» للمحدث الألباني، طبع المكتب الإسلامي.

فأجاب رحمه الله:

العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة. فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبرّ الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار، واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، والمملوك من الآدميين، والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك = من العبادة.

وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك: هي من العبادة لله.

وذلك: أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، التي خَلق الخلق لها، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

وبها أرسل جميع الرسل، كما قال نوح لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥. هود: ٥٠، ٦١، ٨٤. المؤمنون: ٢٣، ٣٢].

وكذلك قال هود، وصالح، وشعيب، وغيرهم لقومهم. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا

﴿ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ [النحل:٣٦] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء] كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون].

وجعل ذلك لازماً لرسوله إلىٰ الموت كما قال: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر][1].

وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه فقال تعالىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف].

وذمَّ المستكبرين عنها بقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر].

ونعت صَفوة خلقه بالعبودية له، فقال تعالى: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان] وقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ

---

(١) وهذا ملزم لكل العباد، ومن بعدهم الرسل كذلك.

يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ . . .﴾ الآيات(١) [الفرقان].

ولمّا قال الشيطان: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر]؛ قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر].

وقال في وصف الملائكة بذلك: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ

---

(١) تتمة الآيات: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾.

ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء] وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم].

وقال تعالىٰ عن المسيح الذي ادعيت فيه الإلٰهية والبنوة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزخرف] ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح {خ(٣٤٤٥)}: **«لا تُطْرُوني[1] كما أطْرتِ النصارىٰ عيسىٰ ابن مريم، فإنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ الله ورسوله»**[2].

وقد نعته الله بالعبودية في أكمل أحواله. فقال في الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١] وقال في الإيحاء: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم] وقال في الدعوة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن] وقال في التحدي: ﴿﴿٢٣﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة].

فالدين كله داخل في العبادة. وقد ثبت في «**الصحيح**» {م(٨)} أن جبريل لما جاء إلىٰ النبي ﷺ في صورة أعرابي

---

(١) الإطراء: الزيادة في المدح والتغالي فيه حتىٰ يتجاوز الحق.

(٢) رواه الإمام **البخاري** في «صحيحه» عن عمر بن الخطاب ﷺ.

وسأله عن الإسلام. قال: «**الإسلام أن تشهد أن لا إلـه إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيمَ الصلاة، وتؤتيَ الزكاة، وتصومَ رمضان، وتحجَّ البيت إنِ استطعت إليه سبيلاً**». قال: فما الإيمان؟ قال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، وتؤمنَ بالقدر خيره وشره**». قال: فما الإحسان؟ قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**». ثم قال في آخر الحديث: «**هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم**». فجعل هذا كلَّه من الدين.

والدين يتضمن معنىٰ الخضوع والذل؛ يقال: دِنْتُهُ، فدان. أي أذللته فذل. ويقال: يَدين اللهَ، ويَدين لله: أي يعبد الله، ويطيعه، ويخضع له. فدين الله: عبادته وطاعته والخضوع له.

والعبادة أصل معناها: الذل أيضاً. يقال: طريق معبَّد، إذا كان مذللاً قد وَطِئَتْهُ الأقدام.

لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنىٰ الذل ومعنىٰ الحب: فهي تتضمن غاية الذل لله تعالىٰ، بغاية المحبة له.

فإن آخر مراتب الحب: هو التتيم، وأوله: العَلاقة لتعلق القلب بالمحبوب، ثم الصَّبابة لانصباب القلب إليه، ثم الغرام وهو الحب الملازم للقلب، ثم العشق. وآخرها التتيم، يقال: تَيْمُ اللهِ، أي عَبْدُ اللهِ، فالمتيَّم: المعبَّد لمحبوبه.

ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له، كما قد يحب الرجل ولده

وصديقه. ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالىٰ، بل يجب أن يكون اللهُ أحبَّ إلىٰ العبد من كل شيء؛ وأن يكون اللهُ أعظمَ عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والخضوعَ التامَّ إلا اللهُ. وكل ما أُحِبَّ لغير الله فمحبته فاسدة، وما عُظِّم بغير أمر الله فتعظيمه باطل. قال الله تعالىٰ: ﴿(٢٣) قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة].

فجنس المحبة، تكون لله ولرسوله كالطاعة، فإن الطاعة لله ولرسوله والإرضاء لله ولرسوله؛ ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة:٦٢] والإيتاء لله ولرسوله؛ ﴿(٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة].

وأما العبادة وما يناسبها: من التوكل، والخوف، ونحو ذلك، فلا تكون إلا لله وحده كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾ [آل عمران].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ (٥٩)﴾ [التوبة]. فالإيتاء لله وللرسول، كقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]. وأما

الحسْب ـ وهو الكافي ـ فهو الله وحده، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران] وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال] أي حسبك وحسبُ من اتَّبعك من المؤمنين: اللهُ ـ ومن ظن أن المعنىٰ: حسبك الله والمؤمنون معه، فقد غلط غلطاً فاحشاً، كما قد بسطناه في غير هذا الموضع[1] ـ وقال تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴿٣٦﴾﴾ [الزمر].

وتحرير ذلك: أن العبد يراد به المعبَّد الذي عبَّده الله، فذلَّله ودبَّره وصرَّفه.

وبهذا الاعتبار: فالمخلوقون كلهم عباد الله: الأبرار منهم والفجار، والمؤمنون والكفار، وأهل الجنة وأهل النار، إذ هو

(١) انظر: «منهاج السنّة» ٤/ ٥٥ الطبعة الأولىٰ، و٧/ ٢٠١ ـ ٢٠٥ من الطبعة الجديدة، عند قوله تعالىٰ: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ راداً علىٰ من جعلها في سيدنا علي بن أبي طالب. وقد رجّح الإمام ابن الجوزي هذا الرأي بدلالة بارعة راداً علىٰ الذين قالوا بأنها نزلت يوم إسلام سيدنا عمر بن الخطاب بقوله: السورة مدنية بالإجماع، والقول الأول أصح. وهو قول ابن عباس، وأبي زيد، ومقاتل، وأبي سليمان الدمشقي والأكثرين. والثاني لا يحفظ. انظر: «زاد المسير» ٣/ ٣٧٧ الذي طبعناه للمرة الأولىٰ سنة ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

ربُّهم كلِّهم ومليكُهم، لا يخرجون عن مشيئته وقدرته، و(كلماته التامات التي لا يجاوزها بَرٌّ ولا فاجر)[١]، فما شاء كان وإن لم يشاؤوا، وما شاؤوا إن لم يشأه لم يكن، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران]. فهو سبحانه رب العالمين، وخالقهم ورازقهم، ومحييهم ومميتهم، ومقلِّب قلوبهم، ومصرف أمورهم، لا رب لهم غيره، ولا مالك لهم سواه، ولا خالق لهم إلا هو، سواء اعترفوا بذلك أو أنكروه، وسواء علموا ذلك أو جهلوه، لكن أهل الإيمان منهم عرفوا ذلك، وآمنوا به، بخلاف من كان جاهلاً بذلك، أو جاحداً له، مستكبراً علىٰ ربه، لا يقرُّ ولا يخضع له، مع علمه بأن الله ربه وخالقه، فالمعرفة بالحق إذا كانت مع الاستكبار عن قَبوله والجحد له، كان عذاباً علىٰ صاحبه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل] وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة] وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام].

---

(١) هو في عدة أحاديث تنظر في: حم٣/٤١٩(١٥٤٤٠)، و«صحيح الجامع الصغير» (٧٤)، و«الصحيحة» (٨٤٠ و٢٩٩٥ و٢٧٣٨)، و«السنة» لابن أبي عاصم (٣٧٢).

فإذا عرف العبد أن الله ربه وخالقه، وأنه مفتقرٌ إليه محتاج إليه، عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله. وهذا العبد يسأل ربه، ويتضرع إليه ويتوكل عليه. لكن قد يطيع أمره وقد يعصيه، وقد يعبده مع ذلك، وقد يعبد الشيطان والأصنام، ومثل هذه العبودية لا تفرِّق بين أهل الجنة وأهل النار، ولا يصير بها الرجل مؤمناً، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف] فإن المشركين كانوا يقرّون أن الله خالقهم ورازقهم وهم يعبدون غيره. قال تعالىٰ: ﴿﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان. الزمر:٣٨] وقال تعالىٰ: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون].

وكثير ممن يتكلم في الحقيقة، فيشهدها، لا يشهد إلا هذه الحقيقة، وهي الحقيقة الكونية التي يشترك فيها وفي شهودها وفي معرفتها المؤمن والكافر، والبَر والفاجر. بل وإبليس معترف بهذه الحقيقة، وأهل النار. قال إبليس: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحجر. ص:٧٩] و﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر] وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص] وقال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء]. وأمثال هذا

من الخطاب الذي يقرّ فيه بأن الله ربه وخالقه وخالق غيره، وكذلك أهل النار قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [المؤمنون] وقال تعالىٰ عنهم: ﴿﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ﴾ [الأنعام].

فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها، ولم يقم بما أمر الله به من الحقيقة الدينية، التي هي عبادته المتعلقة بألوهيته وطاعة أمره وأمر رسوله، كان من جنس إبليس وأهل النار.

فإنْ ظن مع ذلك أنه من خواص أولياء الله وأهل المعرفة والتحقيق، الذين سقط عنهم الأمر والنهي الشرعيان، كان من أشر أهل الكفر والإلحاد.

ومن ظن أن الخَضِرَ وغيره سقط عنهم الأمر لمشاهدة الإرادة ونحو ذلك، كان قوله هذا من شر أقوال الكافرين بالله ورسوله، حتىٰ يدخل في النوع الثاني من معنىٰ العبد، وهو العبد بمعنىٰ العابد، فيكون عابداً لله، لا يعبد إلا إياه، فيطيع أمره وأمر رسله، ويوالي أولياءه المؤمنين المتقين ويعادي أعداءه.

وهذه العبادة متعلقة بالإلـٰهية لله تعالىٰ، ولهذا كان عنوان التوحيد: «لا إلـٰه إلا الله». بخلاف من يقرّ بربوبيته ولا يعبده، أو يعبد معه إلـٰهاً آخر.

فالإلـٰه: هو الذي يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم، والإجلال والإكرام، والخوف والرجاء، ونحو ذلك.

وهذه العبادة: هي التي يحبها الله ويرضاها، وبها وصف المُصْطَفَيْنَ من عباده، وبها بعث رسله.

وأما العبد: بمعنىٰ المعبَّد، سواء أقرّ بذلك أو أنكره، فهذا المعنىٰ يشترك فيه المؤمن والكافر.

وبالفرق بين هذين النوعين يعرف الفرق بين الحقائق الدينية الداخلة في عبادة الله ودينه وأمره الشرعي التي يحبها ويرضاها ويوالي أهلها ويكرمهم بجنته، وبين الحقائق الكونية التي يشترك فيها المؤمن والكافر، والبَر والفاجر، التي من اكتفىٰ بها ولم يتبع الحقائق الدينية، كان من أتباع إبليس اللعين، والكافرين برب العالمين، ومن اكتفىٰ فيها ببعض الأمور دون بعض، أو في مقام [دون مقام][1] أو حال [دون حال][1] نقص من إيمانه وولايته لله بحسب ما نقص من الحقائق الدينية، وهذا مقام عظيم غلط فيه الغالطون، وكثر فيه الاشتباه علىٰ السالكين، حتىٰ زَلِقَ فيه من أكابر الشيوخ المدَّعين للتحقيق والتوحيد والعرفان: ما لا يحصيه إلا الله الذي ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ [طه: ٧. الفرقان: ٦] والإعلان.

وإلىٰ هذا أشار الشيخ عبد القادر[2] (٤٧١ ـ ٥٦١هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ فيما ذُكر عنه، فبيّن أن كثيراً من الرجال (إذا وصلوا إلىٰ القضاء

---

(١) زيادة في إحدىٰ النسخ موضحة للسياق.

(٢) هو الشيخ عبد القادر بن موسىٰ الجيلاني، العالم الزاهد الصالح، المتوفىٰ في بغداد سنة ٥٦١هـ، وتنسب إليه الطريقة القادرية، وهو =

والقدر أمسكوا، إلا أنا فإني انفتحت لي فيه روزنة[1]، فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والرجل من يكون منازعاً للقدر، لا من يكون موافقاً للقدر).

والذي ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو الذي أمر الله به ورسوله. ولكنْ كثير من الرجال غلطوا فيه، فإنهم قد يشهدون ما يُقَدَّرُ علىٰ أحدهم من المعاصي والذنوب، أو ما يُقَدَّرُ علىٰ الناس من ذلك، بل من الكفر، ويشهدون أن هذا جار بمشيئة الله وقضائه وقدره، داخل في حكم ربوبيته ومقتضىٰ مشيئته، فيظنون الاستسلام لذلك وموافقته والرضا به ونحو ذلك، ديناً وطريقاً وعبادة، فيضاهئون المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨] وقالوا: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يسٓ:٤٧] وقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف:٢٠]. ولو هُدوا لعلموا أن القدر أُمِرْنَا أن نرضىٰ به، ونصبر علىٰ موجبه في المصائب التي تصيبنا، كالفقر والمرض والخوف. قال الله تعالىٰ: ﴿﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن

= بريء من البدع والضلالات التي تنسب لهذه الطريقة.
ولشيخ الإسلام ابن تيمية عناية بأقوالها وشرحها، وعندي رسالة جمعت فيها ذلك. يسّر الله طبعها. وقد طبعتُ رسالة، كتبها ولده الشيخ عبد الرزاق في أربعين حديثاً، باسم «الأربعون الكيلانية» رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(١) الروزنة: الكوة، وهي خرق في الحائط، كالنافذة، وما زال اللفظ مستعملاً في العراق.

مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ [التغابن]. قال بعض السلف[1]: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضىٰ ويسلِّم. وقال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ﴾ [الحديد].

وفي «الصحيحين» {؟} عن النبي ﷺ أنه قال: «**احتج آدم وموسىٰ. فقال موسىٰ: أنت آدم الذي خلقك الله بيده** [ر:صَ:٧٥]، **ونفخ فيك من روحه** [ر:الحجر:٢٩. صَ:٧٢. و:السجدة:٩]، **وأسجد لك ملائكته** [ر:البقرة:٣٤. الأعراف:١١. الحجر:٢٩،٣٠. الإسراء:٦١. الكهف:٥٠. طه:١١٦. صَ:٧٢،٧٣]، **وعلمك أسماء كل شيء** [ر:البقرة:٣١] **فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟** [ر:البقرة:٣٦،٣٨. الأعراف:٢٤. طه:١٢٣] **فقال آدم: أنت موسىٰ الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه** [ر:الأعراف:١٤٤]، **فهل وجدت ذلك مكتوباً عليَّ قبل أن أخلق؟ قال: نعم**». قال: «**فحَج آدم موسىٰ**»[2].

وآدم ﷺ لم يحتج علىٰ موسىٰ بالقدر ظناً أن المذنب يحتج

(١) هو علقمة بن قيس (ـ ٦٢هـ). هق ٤/ ٦٦، هب (٩٩٧٦).

(٢) لشيخ الإسلام رسالة في هذا الموضوع، بسط فيها القول بما يقنع ويكفي، وقد قمت بتحقيقها، وخرّج الشيخ ناصر الدين الألباني أحاديثها، وطبعت باسم «الاحتجاج بالقدر».
وسياقه ملفق من: م(٢٦٥٢) (١٥)، غ(٤٧٣٨)، حم ٢/ ٣٩٢(٩٠٦٩) ـ أبو هريرة. مع د(٤٧٠٢) ـ عمر.

بالقدر، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل؛ ولو كان هذا عذراً لكان عذراً لإبليس، وقوم نوح، وقوم هود، وكل كافر. ولا موسىٰ لام آدم أيضاً لأجل الذنب، فإن آدم قد تاب إلىٰ ربه فاجتباه ﴿وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه. ر:البقرة:٣٧] ولكن لامه لأجل المصيبة التي لحقتهم بالخطيئة. ولهذا قال: فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فأجابه آدم: إن هذا كان مكتوباً عليَّ قبل أن أُخلق.

فكان العمل والمصيبة المترتبة عليه مقدَّراً، وما قُدّر من المصائب يجب الاستسلام له، فإنه من تمام الرضا بالله رباً.

وأما الذنوب، فليس للعبد أن يُذْنِبَ، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب، فيتوب من صنوف المعايب ويصبر علىٰ المصائب. قال تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر:٥٥] وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٢٠] وقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران]. وقال يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف].

وكذلك ذنوب العباد، يجب علىٰ العبد فيها أن يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر بحسب قدرته، ويجاهد في سبيل الله الكفار والمنافقين، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله، ويحب في الله ويبغض في الله، كما قال تعالىٰ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة] وقال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة] وقال تعالىٰ: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [القلم] وقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص] وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر] وقال تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر] وقال تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا

مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل] وقال تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر].

ونظائر ذلك مما يفرِّق الله فيه بين أهل الحق والباطل، وأهل الطاعة والمعصية، وأهل البر والفجور، وأهل الهدىٰ والضلال، وأهل الغي والرشاد، وأهل الصدق والكذب.

فمن شهد الحقيقة الكونية دون [الحقيقة] الدينية، سوَّىٰ بين هذه الأصناف المختلفة التي فرَّق الله بينها غاية التفريق، حتىٰ تؤول به هذه التسوية إلىٰ أن يسوّي بين الله وبين الأصنام، كما قال تعالىٰ عنهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء]. بل قد آل الأمر بهؤلاء إلىٰ أن سَوَّوُا الله بكل موجود، وجعلوا ما يستحقه من العبادة والطاعة حقاً لكل موجود، إذ جعلوه هو وجودَ المخلوقات، وهذا من أعظم الكفر والإلحاد برب العباد.

وهؤلاء يصل بهم الكفر إلىٰ أنهم لا يشهدون أنهم عباد الله، لا بمعنىٰ أنهم معبَّدون، ولا بمعنىٰ أنهم عابدون، إذ يشهدون أنفسهم هي الحق، كما صرح بذلك طواغيتهم، كابن عربي {٥٦٠ـ٦٣٨هـ}

صاحب «الفصوص»، وأمثاله من الملحدين المفترين، كابن سبعين {٦١٣-٦٦٩هـ} وأمثاله، ويشهدون أنهم هم العابدون والمعبودون.

وهذا ليس بشهود للحقيقة، لا الكونية ولا الدينية، بل هو ضلال وعمىً عن شهود الحقيقة الكونية، حيث جعلوا وجود الخالق هو وجود المخلوق، وجعلوا كل وصف مذموم وممدوح نعتاً للخالق والمخلوق، إذ وجود هذا هو وجود هذا عندهم.

وأما المؤمنون بالله ورسوله، عوامُّهم وخواصُّهم، الذين هم أهل القرآن، كما قال النبي ﷺ: «**إن لله أهلين من الناس**» قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «**أهل القرآن، هم أهل الله وخاصته**» {هـ(٢١٥)}[1] = فهؤلاء يعلمون أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه، وأن الخالق سبحانه مباين للمخلوق. ليس هو حالّاً فيه، ولا متَّحداً به، ولا وجودُه وجودَه. والنصارىٰ إنما كفّرهم الله إذ قالوا بالحلول واتحاد الرب بالمسيح خاصة. فكيف من جعل ذلك عامّاً في كل مخلوق؟ ويعلمون مع ذلك أن الله أمر بطاعته وطاعة رسوله، ونهىٰ عن معصيته ومعصية رسوله، وأنه ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة]، ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧]، وأن علىٰ الخلق أن يعبدوه فيطيعوا أمره،

---

(١) رواه أحمد في «المسند» {٣/١٢٧، ١٢٨، ٢٤٢ (١٢٢٦٤، ١٢٢٧٧، ١٣٥٢٦) طبعة المكتب الإسلامي الجديدة المرقمة، بإشراف الدكتور سمير المجذوب}، وسنده حسن، وهو حديث **صحيح لغيره**، كما حققته في «الأحاديث الضعيفة» برقم (١٥٨٢). **ناصر**.

ويستعينوا به علىٰ كل ذلك كما قال في فاتحة الكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة].

ومن عبادته وطاعته: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب الإمكان، والجهاد في سبيله لأهل الكفر والنفاق، فيجتهدون في إقامة دينه، مستعينين به، رافعين مزيلين بذلك ما قدر من السيئات، دافعين بذلك ما قد يُخاف من آثار ذلك، كما يزيل الإنسان الجوع الحاضر بالأكل، ويدفع به الجوع المستقبل. وكذلك إذا آن أوان البرد، دفعه باللباس، وكذلك كل مطلوب يدفع به مكروه، كما قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله! أرأيت أدوية نتداوىٰ بها، ورقىً نسترقي بها، وتقىً[1] نتقي بها، هل تردُّ من قدر الله شيئاً؟ فقال: **«هي من قدر الله»**[2]. وفي الحديث: **«إن الدعاء والبلاء ليلتقيان، فيعتلجان بين السماء والأرض»**[3].

---

(١) جمع تقية: ما يدفع به الإنسان ما يخاف ويكره. وهي في إحدىٰ النسخ: (تقاة).

(٢) والحديث في «مسند الإمام أحمد» ٣/ ٤٢١ (١٥٤٥١ ـ ١٥٤٥٣)، و«مشكاة المصابيح» (٩٧)، و«ضعيف سنن الترمذي» (٣٥٩/ ٢١٥٩، ٣٧٩/ ٢٢٥٢)، و«ضعيف ابن ماجه» (٧٤٩/ ٣٤٣٧)، و«تخريج أحاديث مشكلة الفقر» (١١)، وكلها طبع المكتب الإسلامي.

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» ١/ ٤٩٢ وصححه من حديث عائشة مرفوعاً، ورده الذهبي بقوله: (قلت: زكريا بن منظور ـ يعني الذي في إسناده ـ مجمع علىٰ ضعفه).

فهذا حال المؤمنين بالله ورسوله، العابدين لله، وكل ذلك من العبادة.

وهؤلاء الذين يشهدون الحقيقة الكونية ـ وهي ربوبيته تعالىٰ لكل شيء ـ، ويجعلون ذلك مانعاً من اتِّباع أمره الديني الشرعي: علىٰ مراتب في الضلال:

فغُلاتهم يجعلون ذلك مطلقاً عامّاً، فيحتجُّون بالقدر في كل ما يخالفون فيه الشريعة.

وقول هؤلاء شرٌّ من قول اليهود والنصارىٰ، وهو من جنس قول المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨]. وقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف:٢٠].

وهؤلاء من أعظم أهل الأرض تناقضاً، بل كلُّ من احتج بالقدر فإنه متناقض. فإنه لا يمكن أن يُقَرّ كل آدمي علىٰ ما يفعل، فلا بد إذا ظلمه ظالم، أو ظلم الناس ظالم، وسعىٰ في الأرض بالفساد، وأخذ يسفك دماء الناس، ويستحلُّ الفروج ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ [البقرة:٢٠٥] ونحو ذلك من أنواع الضرر التي لا قِوام للناس بها، أن يدفع هذا القدَر، وأن يعاقب الظالم بما يكف عدوانه وعدوان أمثاله. فيقال له: إن كان القدر حجةً، فدع كل أحد يفعل ما يشاء بك وبغيرك؛ وإن لم يكن حجة بطل أصل قولك: [إن القدر] حجة.

وأصحاب هذا القول الذين يحتجون بالحقيقة الكونية، لا

يطردون هذا القول ولا يلتزمونه، وإنما هم يتبعون آراءهم وأهواءهم، كما قال فيهم بعض العلماء[١]: أنت عند الطاعة قدَري، وعند المعصية جَبْري، أيُّ مذهب وافق هواك تمذهبت به[٢].

ومنهم صنف يدَّعون التحقيق والمعرفة، ويزعمون أن الأمر والنهي لازم لمن شهد لنفسه أفعالاً، وأثبت له صفات. أما من شهد أن أفعاله مخلوقة، أو أنه مجبور علىٰ ذلك، وأن الله هو المتصرف فيه كما يحرك سائر المتحركات، فإنه يرتفع عنه الأمر والنهي، والوعد والوعيد.

وقد يقولون: من شهد الإرادة سقط عنه التكليف. ويزعمون أن الخضر سقط عنه التكليف لشهوده الإرادة.

فهؤلاء: يفرقون بين العامة والخاصة الذين شهدوا الحقيقة الكونية، فشهدوا أن الله خالق أفعال العباد، وأنه مريد ومدبر لجميع الكائنات.

وقد يفرقون بين من يعلم ذلك علماً، وبين من يراه شهوداً، فلا يسقطون التكليف عمن يؤمن بذلك ويعلمه فقط؛ ولكن [يسقطونه] عمن يشهده، فلا يرىٰ لنفسه فعلاً أصلاً. وهؤلاء

---

(١) عزاه في «مجموع الفتاوىٰ» ٨/٤٤٦، ١٦/٢٤٨، ١٨/٢٠٤ إلىٰ ابن الجوزي.

(٢) وما أكثر هؤلاء في هذا الزمن، وكثير من ذلك عند أدعياء العلم، حيث أصبح الهوىٰ هو المتبع، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يجعلون الجبر وإثبات القدر مانعاً من التكليف علىٰ هذا الوجه.

وقد وقع في هذا طوائف من المنتسبين إلىٰ التحقيق والمعرفة والتوحيد.

وسبب ذلك: أنه ضاق نطاقهم عن كون العبد يؤمر بما يقدَّر عليه خلافه. كما ضاق نطاق المعتزلة ونحوهم من القدرية عن ذلك. ثم المعتزلة أثبتت الأمر والنهي الشرعيين دون القضاء والقدر، اللذين هما إرادة الله العامة وخلقه لأفعال العباد. وهؤلاء أثبتوا القضاء والقدر، ونفَوُا الأمر والنهي في حق من شهد القدر؛ إذ لم يمكنهم نفي ذلك مطلقاً.

وقول هؤلاء شر من قول المعتزلة، ولهذا لم يكن في السلف من هؤلاء أحد، وهؤلاء يجعلون الأمر والنهي للمحجوبين الذين لم يشهدوا هذه الحقيقة الكونية، ولهذا يجعلون من وصل إلىٰ شهود هذه الحقيقة يسقط عنه الأمر والنهي، ويقولون: إنه صار من الخاصة. وربما تأَوَّلُوا علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر]. فاليقين عندهم؛ هو معرفة هذه الحقيقة.

وقول هؤلاء كفر صريح، وإن وقع فيه طوائف لم يعلموا أنه كفر؛ فإنه قد عُلم بالاضطرار من دين الإسلام، أن الأمر والنهي لازمان لكل عبد ما دام عقله حاضراً إلىٰ أن يموت،

لا يسقطان[1] عنه، لا بشهوده القدر، ولا بغير ذلك. فمن لم يعرف ذلك عُرِّفه وبيِّن له، فإن أصرَّ علىٰ اعتقاد سقوط الأمر والنهي، فإنه يُقْتَل.

وقد كثرت مثل هذه المقالات في المستأخرين.

وأما المتقدمون من هذه الأمة، فلم تكن هذه المقالات معروفة فيهم. وهذه المقالات هي محادَّةٌ لله ورسوله، ومعاداة له، وصدٌّ عن سبيله، ومُشاقّة له، وتكذيب لرسله، ومضادَّة له في حكمه، وإن كان من يقول هذه المقالات قد يجهل ذلك، ويعتقد أن هذا الذي هو عليه، هو طريق الرسول، وطريق أولياء الله المحققين، فهو في ذلك بمنزلة من يعتقد أن الصلاة لا تجب عليه؛ لاستغنائه عنها بما حصل له من الأحوال القلبية، أو أن الخمر حلال له؛ لكونه من الخواص الذين لا يضرهم شرب الخمر، أو أن الفاحشة حلال له؛ لأنه صار كالبحر لا تكدِّره الذنوب ونحو ذلك!

ولا ريب أن المشركين الذين كذَّبوا الرسول يتردّدون بين البدعة المخالفة لشرع الله، وبين الاحتجاج بالقدر علىٰ مخالفة أمر الله، فهذه الأصناف فيها شبه من المشركين؛ إما أن يبتدعوا،

---

(١) إن هذا التوضيح من شيخ الإسلام يبين ضلال العديد من الذين تورطوا في تكفير المسلمين بشبه، هم لم يتبينوا حقيقتها ومعرفة أصولها. ومنهم ـ مع الأسف ـ بعض الذين سرقوا وطبعوا هذا الكتاب «العبودية» في التقديم الباطل، والتعليق المبتسر.

وإما أن يحتجوا بالقدر، وإما أن يجمعوا بين الأمرين، كما قال تعالىٰ عن المشركين: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف]، وكما قال تعالىٰ عنهم: ﴿﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام].

وقد ذَكَرَ عن المشركين ما ابتدعوه من الدين الذي فيه تحليل الحرام، وعبادة الله بما لم يَشْرَعِ الله، في مثل قوله تعالىٰ: ﴿﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ . . .﴾ إلىٰ آخر السورة [الأنعام]. وكذلك في سورة الأعراف في قوله: ﴿﴿٢٦﴾ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ . . .﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ . . .﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ . . .﴾ إلىٰ قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وهؤلاء قد يسمُّون ما أحدثوه من البدع: حقيقة، كما يسمون ما يشهدون من القدر: حقيقة، وطريق الحقيقة عندهم: هو السلوك الذي لا يتقيد صاحبه بأمر الشارع ونهيه، ولكن بما

يراه ويذوقه ويجده في قلبه مع ما فيه من غفلة عن الله جل وعلا ونحو ذلك.

وهؤلاء لا يحتجون بالقدر مطلقاً، بل عمدتُهُمُ اتّباع آرائهم وأهوائهم، وجَعْلُهم ما يرَونه وما يهوَونه حقيقة. ويأمرون باتباعها دون اتباع أمر الله ورسوله، نظير بدع أهل الكلام من الجَهْمية وغيرهم، الذين يجعلون ما ابتدعوه من الأقوال المخالفة للكتاب والسنّة حقائق عقلية يجب اعتقادها، دون ما دلت عليه السمعيات. ثم الكتاب والسنّة، إما أن يحرِّفوا القول فيهما عن مواضعه، وإما أن يعرضوا عنه بالكلية، فلا يتدبَّرونه ولا يعقلونه، بل يقولون: نفوِّض معناه إلىٰ الله. مع اعتقادهم نقيض مدلوله. وإذا حُقِّق علىٰ هؤلاء ما يزعمونه من العقليات المخالفة للكتاب والسنّة، وُجدت جهليات واعتقادات فاسدة.

وكذلك أولئك إذا حقق عليهم ما يزعمونه من حقائق أولياء الله، المخالفة للكتاب والسنّة، وجدت من الأهواء التي يتبعها أعداء الله لا أولياؤه.

وأصل ضلال من ضل[1]، هو بتقديم قياسه علىٰ النصِّ المُنْزَل من عند الله، وتقديم اتباع الهوىٰ علىٰ اتباع أمر الله. فإن الذوق والوجد ونحو ذلك هو بحسب ما يحبه العبد ويهواه. فكل محب له ذوق ووجد بحسب محبته وهواه.

فأهل الإيمان لهم من الذوق والوجد، مثل ما بيَّنه النبي ﷺ

---

(١) في نسخة: (وأصل كل ضلال من ضل إنما).

بقوله في الحديث الصحيح {خ(١٦)، م(٤٣)}: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقَىٰ في النار**»[(١)]. وقال ﷺ في الحديث الصحيح {م(٣٤)}: «**ذاق طعمَ الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً**»[(٢)].

وأما أهل الكفر والبدع والشهوات، فكلٌّ بحسبه.

قيل لسفيان بن عُيينة {١٠٧ـ١٩٨هـ}: ما بال أهل الأهواء لهم محبة شديدة لأهوائهم؟ فقال: أنسيت قوله تعالىٰ: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة:٩٣] أو نحو هذا من الكلام.

فعبَّاد الأصنام يحبون آلهتهم كما قال تعالىٰ: ﴿(١٦٤) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة] وقال: ﴿(٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص] وقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ (٢٣)﴾ [النجم].

ولهذا يميل هؤلاء، ويُغرَمون بسماع الشعر والأصوات التي تهيج المحبة المطلقة، التي لا تختص بأهل الإيمان، بل

---

(١) رواه **البخاري ومسلم** وغيرهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وهو في «تخريج فقه السيرة» صفحة ٢١١. **ناصر**.

(٢) رواه **مسلم** عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

يشترك فيها محب الرحمٰن، ومحب الأوثان، ومحب الصلبان، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان، ومحب المردان، ومحب النِّسوان، وهؤلاء: الذين يتَّبِعون أذواقهم ومواجيدهم، من غير اعتبار لذلك بالكتاب والسنّة، وما كان عليه سلف الأمة.

فالمخالف لما بعث الله به رسوله من عبادته وحده، وطاعته وطاعة رسوله، لا يكون متبعاً لدين شرعه الله أبداً، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية]. بل يكون متبعاً لـ﴿هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص:٥٠]. قال تعالىٰ: ﴿ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الشورىٰ].

وهم في ذلك تارة يكونون على بدعة يسمونها: حقيقة، يقدمونها علىٰ ما شرعه الله. وتارة يحتجون بالقدر الكوني علىٰ الشريعة، كما أخبر الله به عن المشركين كما تقدم {= ٦٥}.

ومن هؤلاء طائفة هم أعلاهم عندهم قدْراً، وهم مستمسكون بما اختاروا بهواهم من الدين في أداء الفرائض المشهورة، واجتناب المحرمات المشهورة، لكن يَضِلُّون بترك ما أُمروا به من الأسباب التي هي عبادة، ظانِّين أن العارف إذا شهد القدر أعرض عن ذلك، مثل من يجعل التوكل منهم أو

الدعاء منهم ونحو ذلك من مقامات العامة دون الخاصة، بناءً علىٰ أن من شهد القدر، علم أن ما قُدِّر سيكون، فلا حاجة إلىٰ ذلك، وهذا ضلال مبين[(١)]=

= فإن الله قدَّر الأشياء بأسبابها، كما قدَّر السعادة والشقاوة بأسبابهما، كما قال النبي ﷺ: «**إن الله خلق للجنة أهلاً، خلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، وبعمل أهل الجنة يعملون، وخلق للنار أهلاً، خلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، وبعمل أهل النار يعملون**» {م(٢٦٦٢)}[(٢)]. وكما قال النبي ﷺ لما أخبرهم بأن الله كتب المقادير، فقالوا: يا رسول الله! أفلا نَدَع العمل، ونتكل علىٰ الكتاب؟ فقال: «**لا، اعملوا، فكلٌّ ميسرٌ لما خُلق له، أما من كان من أهل السعادة، فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة**» {خ(١٣٦٢)، م(٢٦٤٧)}.

فكل ما أمر الله به عباده من الأسباب فهو عبادة، والتوكل مقرون بالعبادة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود:١٢٣]. وفي قوله: ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠﴾ [الرعد]. وقول شعيب عليه السلام: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [هود].

---

(١) في نسخة: غلط عظيم.
(٢) رواه أحمد (٦/ ٤١، ٢٠٨ (٢٤١٢٥، ٢٥٧٣٠)، ومسلم، وأبو داود (٣٩٤٤/ ٤٧١٣).

ومنهم طائفة قد تترك المستحبات من الأعمال دون الواجبات، فتنقص بقدر ذلك.

ومنهم طائفة يغترُّون بما يحصل لهم من خرق عادة، مثل مكاشفة أو استجابة دعوة مخالفة للعادة، ونحو ذلك، فيشتغل أحدهم بهذه الأمور عما أُمر به من العبادة والشكر، ونحو ذلك.

فهذه الأمور، ونحوها كثيراً ما تعرض لأهل السلوك والتوجُّه؛ وإنما ينجو العبد منها بملازمة أمر الله الذي بعث به رسوله، في كل وقت، كما قال الزهري {٥٨ ـ ١٢٤هـ}: كان من مضىٰ من سلفنا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة {مي(٩٦)}. وذلك أن السنة كما قال مالك {٩٣ ـ ١٧٩هـ} رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلَّف عنها غرق {مط ٧/٣٣٦}.

والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الأسماء مقصودها واحد، ولها أصلان:

أحدهما: ألّا يعبد إلا الله.

الثاني: ألّا يعبده إلا بما أمر وشرع، لا يعبده بغير ذلك من الأهواء والظنون والبدع. قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف] وقال تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء].

فالعمل الصالح: هو الإحسان وهو فعل الحسنات، والحسنات: هي ما أحبه الله ورسوله، وهو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب.

فما كان من البدع في الدين التي ليست في الكتاب، ولا في صحيح السنة، فإنها ـ وإن قالها من قالها، وعمل بها من عمل ـ ليست مشروعة؛ فإن الله لا يحبها ولا رسوله، فلا تكون من الحسنات ولا من العمل الصالح. كما أن من يعمل ما لا يجوز، كالفواحش والظلم ليس من الحسنات ولا من العمل الصالح.

وأما قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف] وقوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١١٢]: فهو إخلاص الدين لله وحده. وكان عمر بن الخطاب يقول: اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً {حم في الزهد ١٤٧}.

وقال الفُضيل بن عياض {١٠٥ ـ ١٨٧هـ} في قوله تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧. الملك:٢]. قال: أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي؛ ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتىٰ يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون علىٰ السنة {حل ٨/ ٩٥]}.

فإن قيل: فإذا كان جميع ما يحبه الله داخلاً في اسم العبادة، فلماذا عطف عليها غيرها؟ كقوله في فاتحة الكتاب:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، وقوله لنبيّه: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣]، وقول نوح: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ [نوح]، وكذلك قول غيره من الرسل؟

قيل: هذا له نظائر، كما في قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]، والفحشاء من المنكر. وكذلك قوله: ﴿۝٨٩ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل]، وإيتاء ذي القربى: هو من العدل والإحسان، كما أن الفحشاء والبغي من المنكر. وكذلك قوله: ﴿۝١٦٩ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأعراف]، وإقامة الصلاة من أعظم التمسك بالكتاب. وكذلك قوله عن أنبيائه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠]، ودعاؤهم رغباً ورهباً من الخيرات. وأمثال ذلك في القرآن كثير.

وهذا الباب: يكون تارة مع كون أحدهما بعض الآخر، فيعطف عليه تخصيصاً له بالذكر، لكونه مطلوباً بالمعنىٰ العام، والمعنىٰ الخاص.

وتارة تتنوع دلالة الاسم بحال الانفراد والاقتران، فإذا أُفرد عمّ، وإذا قرن بغيره خصّ، كاسم: (الفقير) و: (المسكين) لما أفرد أحدهما في مثل قوله: ﴿۝٢٧٣ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة] وقوله: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ [المائدة:٨٩]: دخل فيه الآخر. ولما قرن بينهما في

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٥٩]: صارا نوعين.

وقد قيل: إن الخاص المعطوف علىٰ العام، لا يدخل في العام حال الاقتران؛ بل يكون من هذا الباب. والتحقيق أن هذا ليس لازماً. قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٧] وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧].

وذكر الخاص مع العام يكون لأسباب متنوعة، تارة لكونه له خاصية ليست لسائر أفراد العام، كما في نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ، وتارة لكون العام فيه إطلاق قد لا يفهم منه العموم، كما في قوله: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ [البقرة]. فقوله: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾: يتناول كل الغيب الذي يجب الإيمان به، لكن فيه إجمال. فليس فيه دلالة علىٰ أن من الغيب: ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك. وقد يكون المقصود أنهم يؤمنون بالمخبر به، وهو الغيب، وبالإخبار بالغيب، وهو ما أنزل إليك وما أنزل من قبلك.

ومن هذا الباب: قوله تعالىٰ: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ

﴿بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأعراف]. وتلاوة الكتاب: هي اتّباعه والعمل به، كما قال ابن مسعود في قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة]. قال: يحلّون حلاله، ويحرمون حرامه، ويؤمنون بمتشابهه، ويعملون بمحكمه[1].

فاتباع الكتاب: يتناول الصلاة وغيرها، لكن خصها بالذكر لمزيتها. وكذلك قوله لموسىٰ: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ [طه]. وإقامة الصلاة لذكره: من أجلِّ عبادته. وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ [الأحزاب] وقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] وقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة]. فإن هذه الأمور هي أيضاً من تمام تقوىٰ الله. وكذلك قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]. فإن التوكل هو الاستعانة، وهي من عبادة الله، لكن خُصت بالذكر، ليقصدها المتعبد بخصوصها. فإنها هي العون علىٰ سائر أنواع العبادة، إذ هو سبحانه لا يُعبد إلا بمعونته.

إذا تبين هذا فكمال المخلوق: في تحقيق عبوديته لله؛ وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته. ومن توهم أن المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه، أو أن الخروج عنها أكمل؛ فهو من أجهل الخلق، بل من أضلّهم. قال تعالىٰ:

---

(١) أخرج منه الطبري (١٨٨٦) شطره الأول. وأخرج شطره الثاني من قول الحسن البصري المتوفىٰ ١١٠هـ ـ رحمه الله.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨)﴾ [الأنبياء] وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)﴾ [مريم] وقال تعالىٰ في المسيح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)﴾ [الزخرف] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)﴾ [الأنبياء] وقال تعالىٰ: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣)﴾ [النساء] وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)﴾ [غافر] وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ (٣٨)﴾ [فصلت] وقال تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ

﴿ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢٠٦﴾ [الأعراف].

وهذا ونحوه ـ مما فيه وصف أكابر الخلق بالعبادة، وذم من خرج عن ذلك ـ متعدد في القرآن، وقد أخبر أنه أرسل جميع الرسل بذلك فقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء] وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ۝٣٦] وقال تعالىٰ لبني إسرائيل: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [العنكبوت] ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ۝٤١﴾ [البقرة] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ [البقرة] وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات] وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٢ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر].

وكل رسول من الرسل افتتح دعوته بالدعاء إلىٰ عبادة الله، كقول نوح ومن بعده عليهم السلام في سورة الشعراء وغيرها[1]: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩ و٦٥ و٧٣ و٨٥. هود: ٥٠ و٦١ و٨٤. المؤمنون: ٢٣ و٣٢].

---

(١) اللفظ في الشعراء هو: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٠٦ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٠٧ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٠٨ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٩﴾ [الشعراء: و١٢٤ و١٤٢ و١٦١ و١٧٧].

وفي «المسند»[١] عن ابن عمر {١٠ق هـ ـ ٧٣هـ} عن النبي ﷺ أنه قال: «**بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتىٰ يُعبد الله وحده لا شريك له، وجُعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار علىٰ من خالف أمري**»[٢].

وقد بيّن أن عباده المخلَصين، هم الذين ينجون من السيئات التي زيّنها الشيطان. قال الشيطان: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر]. قال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر] وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [صٓ] وقال في حق يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف] وقال تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الصافات]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل].

---

(١) ٢/ ٥٠، ٩٢ (٥١١٦، ٥٦٦١)، طبعة المكتب الإسلامي المرقمة بإشراف الشيخ سمير المجذوب وإخوانه.

(٢) ورواه البخاري تعليقاً {قبل (٢٩١٤)}. قال الحافظ ابن حجر {في «الفتح» (٥٨٠١)}: إسناده حسن، وهو **صحيح لغيره** كما حققته في «حجاب المرأة» ص١٠٤ طبع المكتب الإسلامي، و«الإرواء» (١٢٦٩). **ناصر**.

وبالعبودية نعت كل من اصطفىٰ من خلقه في قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٧﴾ [ص] وقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧﴾ [ص]. وقال عن سليمان: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠﴾ [ص]. وعن أيوب: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ﴾ [ص:٤٤]. وقال عنه: ﴿۝٤٠ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ [ص].
وقال عن نوح عليه السلام: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ۝٣﴾ [الإسراء]. وقال عن خاتم رسله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسراء:١] ـ وهو أولىٰ القبلتين، وقد خصّه الله بأنْ جعل العبادة فيه بخمسمئة ضعف[(١)]، والمقصود بمضاعفة الحسنات هو المسجد الذي حرقه اليهود، عليهم لعنة الله، ويظن البعض أن المسجد الأقصىٰ هو الصخرة والقبة المحيطة بها، وليس كذلك[(٢)] ـ وقال: ﴿۝١٨ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ

---

(١) منكر. البزار (٤١٤٢)، هب (٤١٤٠). «الضعيفة» (٥٣٥٥). والصحيح أنها بـ (٢٥٠) صلاة. ك ٤/٥٠٩، طس (٨٢٣٠). «الصحيحة» تحت الحديث (٢٩٠٢).

(٢) **وما قاله شيخ الإسلام بِرَدِّ هذا الظن هو الصحيح. فالمسجد الأقصى هو التل الكبير، وفيه: ما يسمى عرفاً بالمسجد الأقصى، والمسجد المرواني وما يحيط به، مع القبة والساحات، وفي جنوبه قرية السلوان، وعلى اليمين منه حارة المغاربة، وفي الشرق مقبرة باب الأسباط، ومن الشمال المدرسة العمرية (التي ألحقها الإنكليز سنة ١٩١٨ بكنيسة! والآن حاول الصهاينة تغيير المعالم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.**

﴿ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ [الجن] وقال: ﴿(٢٣) وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ [البقرة] وقال: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ (١٠)﴾ [النجم] وقال: ﴿(٥) عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان] وقال: ﴿(٦٢) وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان]. ومثل هذا كثير متعدد في القرآن.

فصل [في التفاضل بالإيمان]

إذا تبين ذلك، فمعلوم أن الناس يتفاضلون في هذا الباب تفاضلاً عظيماً، وهو تفاضلهم في حقيقة الإيمان. وهم ينقسمون فيه إلىٰ عام وخاص، ولهذا كانت إلـٰهية الرب لهم فيها عموم وخصوص.

ولهذا كان الشرك في هذه الأمة «**أخفىٰ من دبيب النمل**» {صحيح. خد (٧١٦)}. وفي «الصحيح» {خ(٦٤٣٥)} عن النبي ﷺ أنه قال: «**تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انْتقش، إن أُعطي رضي، وإن مُنع سخط**»[(١)].

فسماه النبي ﷺ: عبد الدرهم، وعبد الدينار، وعبد القطيفة؛ وعبد الخميصة، وذكر ما فيه دعاءً وخبراً، وهو قوله: «تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتُقِش» والنقش: إخراج الشوكة من الرجل، والمنقاش: ما يخرج به الشوكة.

وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح، لكونه

---

(١) رواه **البخاري** وابن ماجه (٣٣٣٦/٤١٣٦)، حب(٣٢١٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

تعس وانتكس. فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه، وهذه حال من عبد المال. وقد وصف ذلك بأنه إذا أُعطي رضي، وإذا مُنع سخط. كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [التوبة]. فرضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله[1].

وهكذا حال من كان متعلقاً برئاسة أو بصورة، ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخِط. فهذا عبدُ ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له؛ إذِ الرق والعبودية في الحقيقة: هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلبَ واستعبده، فالقلب عبده.

ولهذا يقال {الكندي، من الرجز}:

العبد حر ما قنع
والحر عبد ما طمع

وقال القائل {أبو العتاهية (١٣٠ ـ ٢١١هـ) من الوافر}:

أطعتُ مطامعي فاستَعبدتني
ولو أني قنعت لكنت حراً

ويقال: الطمع غُلٌّ في العنق، قيد في الرِّجل، فإذا زال الغُل من العنق، زال القيد من الرِّجل.

---

(١) وهم المنافقون الذين ذكرهم الله في باقي الآيات. انظر: «تفسير زاد المسير» للإمام ابن الجوزي ٣/ ٤٥٤، بتحقيق الشاويش وشعيب وعبد القادر الأرناؤوط رحمهم الله.

ويروىٰ عن عمر بن الخطاب {٤٠ق هـ - ٢٣هـ} رضي الله عنه، أنه قال: الطمع فقر، واليأس غنىً، وإنَّ أحدكم إذا يئس من شيء، استغنىٰ عنه {حل ١/ ٥٠}.

وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه، فإن الأمر الذي ييأس منه لا يطلبه، ولا يطمع فيه، ولا يبقىٰ قلبه فقيراً إليه، ولا إلىٰ من يفعله. وأما إذا طمع في أمر من الأمور ورجاه، فإن قلبه يتعلق به، فيصير فقيراً إلىٰ حصوله، وإلىٰ من يظن أنه سبب في حصوله، وهذا في المال والجاه والصور وغير ذلك. قال الخليل عليه السلام: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت].

فالعبد لا بد له من رزق، وهو محتاج إلىٰ ذلك، فإذا طلب رزقه من الله صار عبداً لله، فقيراً إليه، وإذا طلبه من مخلوق صار عبداً لذلك المخلوق، فقيراً إليه. ولهذا كانت مسألة[1] المخلوق محرمة في الأصل، وإنما أُبيحت للضرورة. وفي النهي عنها أحاديث كثيرة في «الصحاح» و«السنن» و«المسانيد». كقوله صلى الله عليه وسلم: **«لا تزال المسألة بأحدكم حتىٰ يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مُزْعة من لحم»** {خ(١٤٧٤)، م(١٠٤٠)}[2]. وقال: **«من سأل الناس وله ما يغنيه، جاءت**

---

(١) أي: سؤاله.

(٢) رواه **البخاري ومسلم** والنَّسائي (٢٤٢٣/ ٢٥٨٥) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

مسألته يوم القيامة خدوشاً ـ أو خموشاً أو كدوشاً ـ في وجهه» {د(١٦٢٦)}[١]. وقوله: **«لا تحل المسألة إلا لذي غُرْم مُفظِع، أو دم مُوجِع، أو فَقْر مُدْقِع»** {د(١٦٤١)}[٢]. وهذا المعنىٰ في «الصحيح» {م(١٠٤٤)}. وفيه أيضاً {خ(١٤٧١)}: **«لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيحتطب، خير له من أن يسأل الناس؛ أعطَوه أو منعوه»**[٣]. وقال: **«ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل، ولا مستشرف فخذه، وما لا، فلا تُتبعه نفسك»** {خ(٧١٦٤)، م(١٠٤٥)}[٤]. فكره أخذه مع سؤال اللسان، واستشراف القلب. وقال في الحديث الصحيح: **«من يستغنِ يغنه الله، ومن يستعف يُعِفَّه الله، ومن يتصبر يُصبِّره الله، وما أُعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»** {خ(١٤٦٩)، م(١٠٥٣)}[٥].

---

(١) أخرجه أصحاب «السنن» وغيرهم من حديث ابن مسعود مرفوعاً، وصححه الحاكم {(١/٤٠٧)} وغيره، كما هو مبين في «الأحاديث الصحيحة» (٤٩٩)، ورواه الطبراني في «الأوسط» {(٥٤٦٧)} بمعناه عن جابر رضي الله عنه. قال الحافظ المنذري: بإسناد لا بأس به. **ناصر**.

(٢) رواه أبو داود والبيهقي {٥/ ٢١، ٢٣} وغيرهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه، **وسنده ضعيف** كما بينته في «الإرواء» (٨٦٧). **ناصر**.

(٣) رواه **البخاري** وابن ماجه {(١٤٨٦/١٨٣٦)} وغيرهما عن الزبير بن العوام رضي الله عنه. والشيخان وغيرهما من حديث أبي هريرة نحوه، انظر «غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام» (١٥٦). **ناصر**.

(٤) رواه أحمد ١/ ١٧ (١٠٠) **والبخاري ومسلم** والنسائي (٢٤٤٢/ ٢٦٠٥) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٥) رواه أحمد ٣/ ٩٣ (١١٨٧٤) **والبخاري ومسلم** ومالك (١٨٨٠) =

وأوصىٰ خواص أصحابه ألّا يسألوا الناس شيئاً. وفي «المسند»: (أن أبا بكر {٥١ق هـ-١٣هـ} كان يسقط السوطُ من يده، فلا يقول لأحد: ناولني إياه، ويقول: إن خليلي أمرني ألّا أسأل الناس شيئاً)[١]. وفي «صحيح مسلم» {(١٠٤٣)} وغيره، عن عوف بن مالك {-٧٣هـ} أن النبي ﷺ بايعه في طائفة، وأسرَّ إليهم كلمة خفية: «**ألّا تسألوا الناس شيئاً**»، فكان بعض أولئك النفر يسقط السوط من يد أحدهم ولا يقول لأحد: ناولني إياه.

وقد دلت النصوص علىٰ الأمر بمسألة الخالق، والنهي عن مسألة المخلوق في غير موضع. كقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح]. وقول النبي ﷺ لابن عباس: «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**»[٢].

ومنه قول الخليل: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧]. ولم يقل: فابتغوا الرزق عند الله، لأن تقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر، كأنه قال: لا تبتغوا الرزق إلا عند الله. وقد قال تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢].

= وأبو داود (١٤٤٧/ ١٦٤٤) والنسائي (٢٤٢٥/ ٢٥٨٨) والترمذي (١٦٤٧/ ٢١١٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(١) **وفي سنده انقطاع**. قال الحافظ المنذري: ابن أبي مليكة ـ يعني راوي الحديث ـ، لم يدرك أبا بكر.
انظر: «المسند» طبع المكتب الإسلامي ١/ ١١ (٦٥).

(٢) رواه الترمذي («صحيح سننه» ٢٠٤٣/ ٢٦٤٨)، وأحمد ١/ ٢٩٣، ٣٠٧ (٢٦٦٨، ٢٨٠٣)، والحاكم ٣/ ٥٤١ عن ابن عباس، وهو **حسن لغيره**.

والإنسان لا بد له من حصول ما يحتاج إليه من الرزق ونحوه، ودفع ما يضره. وكلا الأمرين شرع له أن يكون دعاؤه لله، فلا يسأل رزقه إلا من الله، ولا يشتكي إلا إليه، كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

والله تعالىٰ ذكر في القرآن الهجر الجميل، والصفح الجميل، والصبر الجميل. وقد قيل: إن الهجر الجميل: هو هجر بلا أذىً. والصفح الجميل: صفح بلا معاتبة. والصبر الجميل: صبر بغير شكوى إلىٰ المخلوق. ولهذا قرئ علىٰ أحمد بن حنبل {١٦٤ ـ ٢٤١هـ} في مرضه: إن طاوساً {٣٣ ـ ١٠٦هـ} كان يكره أنين المريض ويقول: إنه شكوىٰ. فما أنَّ أحمد حتىٰ مات {حل ٩/ ١٨٣}.

وأما الشكوىٰ إلىٰ الخالق فلا تنافي الصبر الجميل، فإن يعقوب قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ٨٣]. وقال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

وكان عمر بن الخطاب {٤٠ق هـ ـ ٢٣هـ} رضي الله عنه يقرأ في الفجر بسورة يونس، ويوسف، والنحل، فمرَّ بهذه الآية في قراءته. فبكىٰ حتىٰ سُمع نشيجه من آخر الصفوف[1].

---

(١) خت قبل (٧١٦) نحوه ووصله ص في «التفسير» (١١٣٨) **بسند صحيح**. «مختصر البخاري» للألباني ١/ ١٨٢؛ طبعة المكتب الإسلامي.

ومن دعاء موسىٰ: «**اللهم لك الحمد وإليك المشتكىٰ، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك**»[(١)]. وفي الدعاء الذي دعا به النبي ﷺ لما فعل به أهل الطائف ما فعلوا: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني علىٰ الناس، يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين وأنت ربي. اللهم إلىٰ من تكلني؟ إلىٰ بعيد يتجهمني، أم إلىٰ عدو ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عَلَيَّ فلا أُبالي، غير أن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصَلَحَ عليه أمر الدنيا والآخرة: أن ينزل بي سخطك، أو يحل عليَّ غضبك، لك العُتْبىٰ حتىٰ ترضىٰ فلا حول ولا قوة إلا بالله**» وفي بعض الروايات: «**ولا حول ولا قوة إلا بك**»[(٢)].

وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته ورجائه، لقضاء حاجته ودفع ضرورته، قويت عبوديته له، وحريته مما سواه؛ فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له، فيأسه منه يوجب غنىٰ قلبه عنه، كما قيل: استغن عمن شئت تكن

---

(١) ضعيف. «معجم الشيوخ» للصيداوي (٣١٨)، **طس** (٣٣٩٤)، **طص** (٣٣٩؛ طبع المكتب الإسلامي). «الروض النضير» (٦٠٩): ضعيف.

(٢) **إسناده ضعيف معضل**. انظر: «فقه السيرة» بتخريج الألباني ص١٧٧؛ «ضعيف الجامع الصغير وزيادته» (١١٨٢؛ طبع المكتب الإسلامي)، و«الضعيفة» (٢٩٣٣).

نظيره، وأفْضِلْ علىٰ من شئت تكن أميره، واحتج إلىٰ من شئت تكن أسيره. فكذلك طمع العبد في ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له، وإعراض قلبه عن الطلب من الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله، لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق، بحيث يكون قلبه معتمداً إما علىٰ رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه، وإما علىٰ أهله وأصدقائه، وإما علىٰ أمواله وذخائره، وإما علىٰ ساداته وكبرائه، كمالكه ومَلِكه وشيخه ومخدومه وغيرهم، ممن هو قد مات أو يموت. قال تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان].

وكل من علق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه، أو أن يهدوه، خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميراً لهم مدبِّراً لأمورهم، متصرفاً بهم. فالعاقل ينظر إلىٰ الحقائق لا إلىٰ الظواهر. فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ـ ولو كانت مباحة له ـ يبقىٰ قلبه أسيراً لها تحكم فيه وتتصرف بما تريد، وهو في الظاهر سيدها لأنه زوجها أو مالكها، ولكنه في الحقيقة هو أسيرُها ومملوكها، ولا سيما إذا علمتْ بفقره إليها وعشقه لها، وأنه لا يعتاض عنها بغيرها، فإنها حينئذ تتحكم فيه تحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور، الذي لا يستطيع الخلاص منه، بل أعظم؛ فإن أسْر القلب أعظم من أسْر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإن من استُعبِد بدنه واستُرِق وأُسر لا يبالي إذا كان قلبه

مستريحاً من ذلك مطمئناً، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص.

وأما إذا كان القلب ـ الذي هو مَلِكُ الجسم ـ رقيقاً مستعبداً، متيَّماً لغير الله؛ فهذا هو الذل، والأسر المحض، والعبودية الذليلة لما استعبد القلبَ.

وعبودية القلب وأسره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب؛ فإن المسلم لو أسره كافر أو استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك، إذا كان قائماً بما يقدر عليه من الواجبات، ومن استُعبد بحق، إذا «**أدىٰ حق الله وحق موَاليه فله أجران**» {خ(٢٥٤٧)، م(١٥٤)}، ولو أُكره علىٰ التكلم بالكفر فتكلم به ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل:١٠٦] لم يضره ذلك. وأما من استُعبد قلبه فصار عبداً لغير الله، فهذا يضره ذلك، ولو كان في الظاهر مَلِكَ الناس.

فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، كما أن الغنىٰ غنىٰ النفس. قال النبي ﷺ: «**ليس الغنىٰ عن كثرة العرض، وإنما الغنىٰ غنىٰ النفس**» {خ(٦٤٤٦)، م(١٠٥١)}[(١)].

وهذا لعمرو الله إذا كان قد استعبد قلبَه صورةٌ مباحة. فأما من استعبد قلبه صورة محرمة: امرأة أو صبي. فهذا هو العذاب الذي لا يدانيه عذاب.

---

(١) رواه **الشيخان** وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ، وهو مخرج في «تخريج مشكلة الفقر» (١٦). **ناصر**.

وهؤلاء عشَّاق الصور، من أعظم الناس عذاباً وأقلهم ثواباً، فإن العاشق لصورة، إذا بقي قلبه متعلقاً بها، مستعبَداً لها، اجتمع له من أنواع الشر والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد، ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرىٰ، فدوام تعلق القلب بها[1] بلا فعل الفاحشة، أشد ضرراً عليه ممن يفعل ذنباً ثم يتوب منه، ويزول أثره من قلبه[2]. وهؤلاء يشبَّهون بالسكارىٰ والمجانين، كما قيل {الخليع الشامي وديك الجن، من الكامل}:

سُكران سُكر هوىً وسُكر مدامة
ومتىٰ إفاقة من به سُكران؟

وقيل {المجنون (ـ ٦٨هـ)، من الكامل}:

قالوا: جُننتَ بمن تهوىٰ. فقلت لهم:
العشق أعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهرَ صاحبُه
وإنما يُصرع المجنون في حين

---

(١) يعني وهو غافل عن ذكر الله، غير مجاهد لصرفها عن نفسه، حتىٰ تكون عبوديتها خالصة لربه. وإلا ففي حالة المجاهدة هذه يكون في طاعة ربه، فلا يصح أن تكون شراً مطلقاً، فكيف تكون أشد ضرراً مما ذكره المؤلف رحمه الله.

(٢) وذلك لأن دوام تعلق القلب بالصورة علىٰ التفسير السابق، لا بد أن يحمل المرء علىٰ مخالفة الشرع ولو في ناحية لا تتعلق بالفاحشة الكبرىٰ، مثل: إهماله لبعض واجباته الشخصية، أو نحو من يعول ونحوهما.

ومن أعظم أسباب هذا البلاء: إعراض القلب عن الله، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له، لم يكن عنده شيء قط أحلىٰ من ذلك، ولا ألذُّ ولا أمتع ولا أطيب. والإنسان لا يترك محبوباً إلا بمحبوب آخر يكون أحبَّ إليه منه، أو خوفاً من مكروه، فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح، أو بالخوف من الضرر.

قال تعالىٰ في حق يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف]. فالله يصرف عن عبده ما يسوؤه من الميل إلىٰ الصور والتعلق بها، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله، والإخلاص له، بحيث تغلبه نفسه علىٰ اتباع هواها، فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوي في قلبه، انقهر له هواه بلا علاج.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت:٤٥]. فإن الصلاة فيها دفع مكروه، وهو الفحشاء والمنكر، وفيها تحصيل محبوب، وهو ذكر الله. وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع ذلك المكروه، فإن ذكر الله؛ عبادة لله، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها. وأما اندفاع الشر عنه فهو مقصود لغيره علىٰ سبيل التبع.

والقلب خُلِقَ يحبُّ الحق ويريده ويطلبه، فلما عرضت له

إرادة الشر طلب دفع ذلك، فإنها تفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدغل[1].

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس] وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلىٰ] وقال: ﴿۝٢٩ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]. فجعل سبحانه غضّ البصر، وحفظ الفرج، هو أقوىٰ تزكية للنفس، وبَيَّنَ أن ترك الفواحش من زكاة النفوس؛ وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور: من الفواحش والظلم، والشرك، والكذب وغير ذلك.

وكذلك طالب الرئاسة والعلوّ في الأرض، قلبه رقيق لمن يعينه عليها، ولو كان في الظاهر مقدَّمَهم والمطاع فيهم، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم، فيبذل لهم الأموال والولايات، ويعفو عما يجترحونه ليطيعوه ويعينوه؛ فهو في الظاهر رئيس مطاع، وفي الحقيقة عبد مطيع لهم.

والتحقيق أن كلاهما[2] فيه عبودية للآخر، وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله. وإذا كان تعاونهما علىٰ العلو في الأرض

---

(١) الدغل: ما يدخل في الأمر مُفسداً له، وأصله الشجر الملتف حول الشجر المفسد للزرع.

(٢) كذا في النسخ، والجادة: كليهما.

بغير الحق، كانا بمنزلة المتعاونين علىٰ الفاحشة أو قطع الطريق؛ فكل واحد من الشخصين، لهواه الذي استعبده واسترقه مستعبد للآخر.

وهكذا أيضاً طالب المال؛ فإن ذلك المال يستعبده ويسترقه.

وهذه الأمور نوعان:

منها: ما يحتاج العبد إليه، كما يحتاج إليه من طعامه وشرابه ومسكنه ومنكحه، ونحو ذلك. فهذا يطلبه من الله، ويرغب إليه فيه، فيكون المال عنده ـ يستعمله في حاجته ـ بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه. بل بمنزلة الكنيف الذي يقضي فيه حاجته، من غير أن يستعبده، فيكون ﴿هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾ [المعارج].

ومنها: ما لا يحتاج العبد إليه، فهذا لا ينبغي له أن يعلِّق قلبه به. فإذا علق قلبه به صار مستعبَداً له. وربما صار معتمداً علىٰ غير الله، فلا يبقىٰ معه حقيقة العبادة لله، ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل علىٰ غير الله، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ: **«تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة»** {خ(٦٤٣٥)}[1]. وهذا هو عبد هذه الأمور؛ فإنه لو

---

(١) رواه **البخاري**، وابن ماجه، وقد تقدم صفحة (٨٠).

طلبها من الله، فإن الله إذا أعطاه إياه رضي، وإذا منعه إياه سخط. وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويحبّ ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله تعالىٰ. وهذا هو الذي استكمل الإيمان، كما في الحديث: «**من أحب لله وأبغض لله، وأعطىٰ لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»[١] {د(٤٦٨١)}. وقال: «**أوثق عرىٰ الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله**»[٢].

وفي «الصحيح» {خ(١٦)، م(٤٣)} عنه ﷺ: «**ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع إلىٰ الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقىٰ في النار**»[٣]. فهذا وافق ربه فيما يحبه وما يكرهه. فكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأحب المخلوق لله، لا لغرض آخر. فكان هذا من تمام حبه لله؛ فإن محبة محبوب

---

(١) رواه أبو داود عن أبي أمامة **بسند حسن**. انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (٣٨٠). طبع المكتب الإسلامي.

(٢) **حديث حسن**، أخرجه أحمد ٤/ ٢٨٦ (١٨٤٨٠) عن البراء، والطبراني في «الكبير» (١١٥٣٧) عن ابن عباس، وفي «الصغير» (٦٢٤؛ طبع المكتب الإسلامي)، و«الكبير» (١٠٣٥٧) عن ابن مسعود.

(٣) **متفق عليه**، وقد تقدم صفحة (٦٨).

المحبوب من تمام محبة المحبوب، فإذا أحب أنبياء الله وأولياء الله لأجل قيامهم بمحبوبات الحق، لا لشيء آخر، فقد أحبهم لله لا لغيره. وقد قال تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿(٣١) قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران]؛ فإن الرسول لا يأمر إلا بما يحب الله، ولا ينهىٰ إلا عما يبغضه الله، ولا يفعل إلا ما يحبه الله، ولا يخبر إلا بما يحب الله التصديق به.

فمن كان محباً لله، لزم أن يتبع الرسول، فيصدقه فيما أخبر، ويطيعه فيما أمر، ويتأسىٰ به فيما فعل، ومن فعل هذا، فقد فعل ما يحبه الله، فيحبه الله.

وقد جعل الله لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول، والجهاد في سبيله، وذلك لأن الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان، والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله: من ﴿ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ وقد قال تعالىٰ: ﴿(٢٤) قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة] فتوعَّد من كان أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله، والجهاد في سبيله بهذا الوعيد. بل قد ثبت عنه ﷺ في «**الصحيح**» {خ(١٥)، م(٤٤)} أنه قال: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن**

أحدكم حتىٰ أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين».
وفي «**الصحيح**» {خ(٦٦٣٢)}: أن عمر بن الخطاب قال: يا رسول الله! والله لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي فقال: «**لا يا عمر، حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك**». فقال: فوالله لأنت أحب إليَّ من نفسي. فقال: «**الآن يا عمر**».

فحقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب، وهو موافقته في حب ما يحب، وبغض ما يبغض. والله يحب الإيمان والتقوىٰ، ويبغض الكفر والفسوق والعصيان.

ومعلوم أن الحب يحرك إرادة القلب، فكلما قويت المحبة في القلب طلب القلب فعل المحبوبات، فإذا كانت المحبة تامة استلزمت إرادة جازمة في حصول المحبوبات؛ فإذا كان العبد قادراً عليها حصلها، وإن كان عاجزاً عنها ففعل ما يقدر عليه من ذلك، كان له أجر كأجر الفاعل. كما قال النبي ﷺ: «**من دعا إلىٰ هدىً كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء. ومن دعا إلىٰ ضلالة، كان عليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء**» {م(٢٦٧٤)}. وقال: «**إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم**». قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «**وهم بالمدينة؛ حبسهم العذر**»[١].

---

(١) **متفق عليه**: خ(٢٨٣٩) عن أنس، م(١٩١١) عن جابر.

والجهاد: هو بذل الوسع ـ وهو كل ما يُمْلَكُ من القدرة ـ في حصول محبوب الحق، ودفع ما يكرهه الحق. فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد، كان دليلاً علىٰ ضعف محبة الله ورسوله في قلبه.

ومعلوم أن المحبوبات لا تنال غالباً إلا باحتمال المكروهات، سواء كانت محبة صالحة أو فاسدة. فالمحبون للمال والرئاسة والصور، لا ينالون مطالبهم إلا بضرر يلحقهم في الدنيا، مع ما يصيبهم من الضرر في الدنيا والآخرة. فالمحب لله ورسوله إذا لم يحتمل ما يرىٰ ذو الرأي من المحبين لغير الله مما يحتملون في سبيل حصول محبوبهم، دل ذلك علىٰ ضعف محبتهم لله؛ إذا كان ما يسلكه أولئك في نظرهم، هو الطريق الذي يشير به العقل.

ومن المعلوم أن المؤمن أشد حباً لله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة].

نعم قد يسلك المحب ـ لضعف عقله وفساد تصوره ـ طريقاً لا يحصل بها المطلوب. فمثل هذه الطريق لا تحمد إذا كانت المحبة صالحة محمودة. فكيف إذا كانت المحبة فاسدة، والطريق غير موصل؟! كما يفعله المتهورون في طلب المال والرئاسة والصور، من حبّ أمورٍ توجب لهم ضرراً، ولا

تحصل لهم مطلوباً، وإنما المقصود: الطرق التي يسلكها العقل السليم لحصول مطلوبه.

وإذا تبين هذا، فكلما ازداد القلب حباً لله، ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبودية، ازداد له حباً وفضَّله عما سواه. والقلب فقير بالذات إلىٰ الله من وجهين: من جهة العبادة، وهي العلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل؛ وهي العلة الفاعلة. فالقلب لا يصلح، ولا يفلح، ولا ينعم، ولا يسر، ولا يلتذ، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن، إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات، لم يطمئن، ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلىٰ ربه، ومن حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور، واللذة والنعمة، والسكون والطمأنينة.

وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له، فإنه لا يقدر علىٰ تحصيل ذلك له إلا الله، فهو دائماً مفتقر إلىٰ حقيقة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾، فإنه لو أُعين علىٰ حصول كل ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده، ولم يحصل له عبادة لله، فلن يحصل إلا علىٰ الألم والحسرة والعذاب، ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها؛ إلا بإخلاص الحب لله، بحيث يكون الله هو غايةَ مراده، ونهاية مقصوده، وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكل ما سواه

إنما يحبه لأجله، لا يحب شيئاً لذاته إلا الله. ومتىٰ لم يحصل له هذا، لم يكن قد حقق حقيقة: «لا إلـٰه إلا الله»، ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة لله، وكان فيه من نقص التوحيد والإيمان؛ بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك.

ولو سعىٰ في هذا المطلوب، ولم يكن مستعيناً بالله متوكلاً عليه، مفتقراً إليه في حصوله، لم يحصل له، فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو مفتقر إلىٰ الله؛ من حيث هو المطلوب المحبوب، المراد المعبود، ومن حيث هو المسؤول المستعان به، المتوكَّل عليه، فهو إلـٰهه الذي لا إلـٰه له غيره، وهو ربه الذي لا رب له سواه.

ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين. فمتىٰ كان يحب غير الله لذاته، أو يلتفت إلىٰ غير الله أنه يعينه، كان عبداً لما أحبه، وعبداً لما رجاه، بحسب حبه له ورجائه إياه، وإذا لم يحب أحداً لذاته إلا الله، وأي شيء أحبه سواه، فإنما أحبه له، ولم يرجُ قط شيئاً إلا الله وإذا فعل ما فعل من الأسباب، أو حصَّل ما حصّل منها كان مشاهداً أن الله هو الذي خلقها وقدرها وسخرها له، وأن كل ما في السماوات والأرض فالله ربه ومليكه وخالقه ومسخره، وهو مفتقر إليه = كان قد حصل له من تمام عبوديته لله بحسب ما قُسم له من ذلك.

والناس في هذا علىٰ درجات متفاوتة، لا يحصي طرقها[1] إلا الله.

فأكمل الخلق وأفضلهم، وأعلاهم وأقربهم إلىٰ الله، وأقواهم، وأهداهم: أتمهم عبودية لله من هذا الوجه.

وهذا هو حقيقة دين الإسلام الذي أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه، وهو أن يستسلم العبد لله لا لغيره، فالمستسلم له ولغيره مشرك، والممتنع عن الاستسلام له مستكبر. وقد ثبت في «**الصحيح**» {م(٩١)} عن النبي ﷺ: أن «**الجنة لا يدخلها من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**». كما أن النار لا يخلد فيها من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فجعل الكبر مقابلاً للإيمان؛ فإن الكبر ينافي حقيقة العبودية، كما ثبت في «**الصحيح**» {م(٢٦٢٠)} عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول الله: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما عذَّبته**» فالعظمة والكبرياء من خصائص الربوبية، والكبرياء أعلىٰ من العظمة، ولهذا جعلها بمنزلة الرداء، كما جعل العظمة بمنزلة الإزار.

ولهذا كان شعار الصلاة والأذان والأعياد: هو التكبير؛ وكان مستحباً في الأمكنة العالية، كالصفا والمروة {م(١٢١٨)}،

---

(١) في نسخة: طرفيها.

(٢) رواه مسلم، حم ٢/٢٤٨ (٧٣٧٤)، د(٤٠٩٠/٣٤٤٦)، هـ(٣٣٦٥/٤١٧٥).

وإذا علا الإنسان شرفاً {خ(١٧٩٧)، م(١٣٤٤)}، أو ركب دابة {م(١٣٤٢)} ونحو ذلك، وبه يُطفأ الحريق {«الضعيفة» (٢٦٠٣)} وإن عظم، وعند الأذان يهرب الشيطان {خ(٦٠٨)، م(٣٨٩)}. قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر].

وكل من استكبر عن عبادة الله لا بد أن يعبد غيره، فإن الإنسان حساس يتحرك بالإرادة. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«أصدق الأسماء: حارث وهمَّام»** {د(٤٩٥٠)}[1] فالحارث: الكاسب الفاعل، والهمّام: فعَّال من الهم، والهمُّ أول الإرادة؛ فالإنسان له إرادة دائماً، وكل إرادة فلا بد لها من مراد تنتهي إليه، فلا بدَّ لكل عبد من مراد محبوب، هو منتهىٰ حبه وإرادته؛ فمن لم يكن الله معبودَه ومنتهىٰ حبه وإرادته، بل استكبر عن ذلك، فلا بد أن يكون له مراد محبوب، يستعبده غير الله، فيكون عبداً لذلك المراد المحبوب: إما المال، وإما الجاه، وإما الصور، وإما ما يتخذه إلـٰهاً من دون الله، كالشمس والقمر، والكواكب، والأوثان،

---

(١) الذي في «صحيح مسلم» (٢١٣٢): «أحب الأسماء إلىٰ الله: عبد الله، وعبد الرحمٰن». وحديث: «وأصدقها: حارث وهمام».
رواه أبو داود، والنسائي {(٣٥٦٥؛ دون موضع الشاهد)، وفي «الكبرىٰ» (٤٤٠٦)}، وليس هو في الصحيح.
وضعفه كذلك في «المشكاة» (٤٧٨٢)، ثم **صححه** بشاهده في «الكلم» (٢١٧؛ طبعة المكتب الإسلامي السادسة ١٤٢٤هـ).

وقبور الأنبياء والصالحين، أو من الملائكة والأنبياء الذين يتخذهم أرباباً، أو غير ذلك مما عُبد من دون الله.

وإذا كان عبداً لغير الله يكون مشركاً، وكل مستكبر فهو مشرك، ولهذا كان فرعون من أعظم الخلق استكباراً عن عبادة الله، وكان مشركاً. قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ ...﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ...﴾ إلىٰ قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر] وقال تعالىٰ: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت] وقال تعالىٰ: ﴿﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ﴾ [القصص] وقال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل]. ومثل هذا في القرآن كثير.

وقد وصف فرعون بالشرك في قوله: ﴿﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ﴾ [الأعراف] بل الاستقراء يدل علىٰ أنه كلما كان الرجل أعظم استكباراً عن عبادة الله، كان أعظم إشراكاً بالله، لأنه كلما استكبر عن عبادة الله، ازداد فقراً وحاجةً إلىٰ المراد المحبوب

الذي هو المقصود: مقصود القلب بالقصد الأول، فيكون مشركاً بما استعبده من ذلك.

ولن يستغني القلب عن جميع المخلوقات؛ إلا بأن يكون الله هو مولاه، الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه، ولا يكره إلا ما يبغضه الرب ويكرهه، ولا يوالي إلا من والاه الله، ولا يعادي إلا من عاداه الله، ولا يحب إلا لله، ولا يبغض شيئاً إلا لله، ولا يعطي إلا لله، ولا يمنع إلا لله. فكلما قوي إخلاص دينه لله كملت عبوديته {=٩٣}، واستغناؤه عن المخلوقات. وبكمال عبوديته لله تكمل تبرئته من الكبر والشرك.

والشرك غالب على النصارى، والكبر غالب على اليهود. قال تعالى في النصارى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة] وقال في اليهود: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف].

ولما كان الكبر مستلزماً للشرك، والشرك ضد الإسلام، وهو الذنب الذي لا يغفره الله. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء] = كان الأنبياء جميعهم مبعوثين بدين الإسلام؛ فهو الدين الذي لا يقبل الله غيره، لا من الأولين، ولا من الآخرين. قال نوح: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس].

وقال في حق إبراهيم: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ...﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة]. وقال يوسف: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف]. وقال موسىٰ: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [يونس] وقال تعالىٰ: ﴿﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة].

وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل] وقال: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة] وقال: ﴿﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ [آل عمران] وقال: ﴿﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران]

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران]. فذكر إسلام الكائنات طوعاً وكرهاً؛ لأن المخلوقات جميعها متعبدة له التعبد العام، سواء أقر المقرُّ بذلك أو أنكره، وهم مدينون له مدبّرون، فهم مسلمون له طوعاً وكرهاً، ليس لأحد من المخلوقات خروج عما شاءه وقدَّره وقضاه، ولا حول ولا قوة إلا به، وهو رب العالمين ومليكهم، يصرِّفهم كيف يشاء، وهو خالقهم كلِّهم، وبارئهم ومصورهم. وكل ما سواه فهو مربوب مصنوع مفطور، فقير محتاج معبَّد مقهور، وهو سبحانه ﴿ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف. الرعد:١٦. ص:٦٥. الزمر:٤ * إبراهيم:٤٨. غافر:١٦]، ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر:٢٤].

وهو وإن كان قد خلق ما خلقه بأسباب فهو خالق السبب والمقدِّر له، وهو مفتقر إليه كافتقار هذا، وليس في المخلوقات سبب مستقل بفعل خير ولا دفع ضر، بل كل ما هو سبب فهو محتاج إلىٰ سبب آخر يعاونه. وإلىٰ ما يدفع عنه الضد الذي يعارضه ويمانعه.

وهو سبحانه وحده الغني عن كل ما سواه، ليس له شريك يعاونه ولا ضد يناوئه ويعارضه. قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر] وقال تعالىٰ:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام] وقال تعالىٰ عن الخليل: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ ...﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام].

وفي «**الصحيحين**» {خ(٣٤٢٩)، م(١٢٤)} عن عبد الله بن مسعود {ـ ٣٢هـ} رضي الله عنه أن هذه الآية لما نزلت شقَّ ذلك علىٰ أصحاب النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله! أيّنا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال: «**إنما هو الشرك، ألم تسمعوا إلىٰ قول العبد الصالح:** ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]».

وإبراهيم الخليل إمام الحنفاء المخلصين، حيث بعث وقد طبق الأرضَ دينُ المشركين. قال الله تعالىٰ: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة]. فبيّن أن عهده بالإمامة لا يتناول الظالم، فلم يأمر الله سبحانه أن يكون الظالم إماماً، وأعظم الظلم الشرك.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل]. والأُمة هو: معلم الخير الذي يؤتم به،

كما أن القدوة: الذي يُقتدىٰ به[(١)].

والله تعالىٰ جعل في ذريته النبوة والكتاب، وإنما بعث الأنبياء بعده بملَّته. قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران][(٢)] وقال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران] وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ . . .﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة].

وقد ثبت في «**الصحيح**» {م(٢٣٦٩)} عن النبي ﷺ: أن «**إبراهيم خير البرية**». فهو أفضل الأنبياء بعد النبي ﷺ وهو خليل الله تعالىٰ.

وقد ثبت في «**الصحيح**» {م(٥٣٢)} عن النبي ﷺ من غير وجه أنه قال: «**إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم**

---

(١) الأمة هنا: الجامع لصفات ومزايا من الهدىٰ والخير لو وزعت في أمة لوسعتهم، وكذلك كان سيدنا إبراهيم عليه السلام.

(٢) وفيها الرد علىٰ اليهود، وأنهم ليسوا علىٰ ملة إبراهيم. انظر: «زاد المسير» ١/ ٤٠٥ لابن الجوزي، طبع المكتب الإسلامي.

خليلاً» * وقال: «**لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر** {٥١ق هـ - ١٣هـ}**خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله»** {م(٢٣٨٣)} يعني: نفسه * وقال: «**لا تُبقَيَنَّ في المسجد خوخة إلا سُدت إلا خوخةَ أبي بكر»** {م(٢٣٨٢)، خ(٣٩٠٤)}* وقال: «**ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك»** {م(٥٣٢)}. وكل هذا في «**الصحيح**» وفيه أنه قال ذلك قبل موته بأيام، وذلك من تمام رسالته، فإن في ذلك تمام تحقيق مخالَّتِهِ لله التي أصلها محبة الله تعالىٰ للعبد ومحبة العبد لله، خلافاً للجهمية[1].

وفي ذلك تحقيق توحيد الله، وألّا يعبدوا إلا إياه، رداً علىٰ أشباه المشركين، وفيه ردٌّ علىٰ الرافضة الذين يبخسون الصدّيق رضي الله عنه حقه، وهم أعظم المنتسبين إلىٰ القبلة إشراكاً بعبادة عليٍّ وغيره من البشر.

والخُلَّة: هي كمال المحبة المستلزمة من العبد كمال العبودية لله، ومن الرب سبحانه كمال الربوبية لعباده الذين يحبهم ويحبونه.

ولفظ العبودية يتضمن كمال الذل وكمال الحب، فإنهم

---

(١) انظر: كتاب «الرد علىٰ الجهمية» للإمام عثمان بن سعيد الدارمي؛ طبع المكتب الإسلامي.

يقولون: قلب متيم إذا كان متعبداً للمحبوب، والمتيّم: المتعبد، وتيم الله: عبد الله، وهذا ـ علىٰ الكمال ـ حصل لإبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم.

ولهذا لم يكن له ﷺ من أهل الأرض خليل، إذ الخلة لا تحتمل الشركة، فإنه كما قيل في المعنىٰ[(١)]:

قد تخللت مسلك الروح مني

وبذا سُمي الخليل خليلا

بخلاف أصل الحب، فإنه ﷺ قد قال في الحديث الصحيح في الحسن {٣ـ٥٠هـ} وأسامة {٧ق هـ ـ٥٤هـ}: **«اللهم إني أُحبهما فأَحبَّهما، وأَحبَّ من يُحبهما»**[(٢)] * وسأله عمرو بن العاص {٥٠ق هـ ـ٤٣هـ} رضي الله عنه: أي الناس أحبّ إليك؟ قال: **«عائشة»** {٩ق هـ ـ٥٨هـ}.

---

(١) عزاه القرطبي في «تفسيره» إلى بشار بن برد، وذُكِرَ في نسخة من نسخ «ديوان البحتري»، وعزاه أبو الحسن علي بن محمد الديلمي ـ تلميذ محمد بن خفيف (٢٧٦ ـ ٣٧١هـ) ـ في «عطف الأَلِفِ المألوف على اللام المعطوف» (٦٨) إلى الشبلي، من الخفيف.

(٢) رواه البخاري (٣٧٣٥) بلفظ: «اللهم أحبهما فإني أحبهما». وما أورده المؤلف فهو من رواية الترمذي في حق الحسن والحسين، وفي سنده: عبد الله بن أبي بكر بن زيد بن المهاجر، وهو مجهول، كما في «التقريب».

ثم **صححه** الشيخ الألباني بشواهده فأورده في «صحيح الترمذي» (٢٩٦٦/ ٤٠٤٠).

قال: فمن الرجال؟ قال: «**أبوها**» {خ(٣٦٦٢)، م(٢٣٨٤)} ❊ وقال لعلي {٢٣ق هـ - ٤٠هـ}[(١)] رضي الله عنه: «**لأعطين الراية غداً رجلاً يحبُّ اللهَ ورسوله، ويحبه الله ورسوله**» {خ(٤٢١٠)، م(٢٤٠٦)}. وأمثال ذلك كثير.

وقد أخبر تعالىٰ أنه: ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران. التوبة: ٤و٧] و ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة. آل عمران: ١٣٤و١٤٨. المائدة: ١٣و٩٣] و ﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات. الممتحنة: ٨] و ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة] و ﴿يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف] وقال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]. فقد أخبر بمحبته لعباده المؤمنين ومحبة المؤمنين له، حتىٰ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

أما الخُلَّة فخاصة، وقول بعض الناس: إن محمداً حبيب الله، وإبراهيم خليل الله، وظنه أن المحبة فوق الخلة؛ قول ضعيف، فإن محمداً أيضاً خليل الله، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة المستفيضة.

وما يُروىٰ أن العباس {٥١ق هـ - ٣٢هـ} يحشر بين حبيب وخليل[(٢)]، وأمثال ذلك، فأحاديث موضوعة لا تصلح أن يُعتمد عليها.

---

(١) معناه: قال بشأن علي، أو في علي رضي الله عنه.

(٢) موضوع. «ضعيف سنن ابن ماجه» (٢٦/ ١٤١)، و«ضعيف الجامع الصغير» (١٥٣٠).

وقد قدمنا {=٩٥} أن محبة الله تعالىٰ هي: محبتُه ومحبَّةُ ما أحبَّ، كما في «**الصحيحين**» {خ(١٦)، م(٤٣)} عن النبي ﷺ أنه قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقىٰ في النار**»[١]. أخبر النبي ﷺ أن من كان فيه هذه الثلاث؛ وجد حلاوة الإيمان، لأن وَجْدَ الحلاوة بالشيء يتبع المحبة له، فمن أحبّ شيئاً أو اشتهاه، إذا حصل له مراده، فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك، واللذة أمر يحصل عقيب إدراك المُلائم الذي هو المحبوب أو المشتهىٰ.

ومن قال: إن اللذة إدراك الملائم ـ كما يقوله من يقوله من المتفلسفة والأطباء ـ فقد غلط في ذلك غلطاً بيّناً، فإن الإدراك يتوسط بين المحبة واللذة، فإن الإنسان مثلاً يشتهي الطعام، فإذا أكله حصل له عقيب ذلك اللذة، فاللذة تتبع النظر إلىٰ الشيء، فإذا نظر إليه التذّ به. واللذة التي تتبع النظر ليست نفس النظر، وليست هي رؤية الشيء، بل تحصل عقيب رؤيته[٢]. وقال تعالىٰ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]. وهكذا جميع ما يحصل للنفس من اللذات والآلام:

---

(١) رواه الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه. وقد تقدم صفحة (٦٨).

(٢) للشيخ ابن تيمية كلام نفيس في ذلك. انظره في: «درء تعارض العقل والنقل» ٦/ ٦٩ وما بعدها.

من فرح، وحزن، ونحو ذلك يحصل بالشعور بالمحبوب، أو الشعور بالمكروه، وليس نفس الشعور هو الفرح ولا الحزن.

فحلاوة الإيمان المتضمنة من اللذة به والفرح ما يجده المؤمن الواجد حلاوة الإيمان، تتبع كمال محبة العبد لله، وذلك بثلاثة أمور: تكميل هذه المحبة، وتفريقها، ودفع ضدها. **فتكميلها**: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، فإن محبة الله ورسوله لا يكتفىٰ فيها بأصل الحب، بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما كما تقدم. **وتفريقها**: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله. **ودفع ضدها**: أن يكره ضد الإيمان أعظم من كراهته الإلقاء في النار.

فإذا كانت محبة الرسول والمؤمنين من محبة الله، وكان رسول الله ﷺ يحب المؤمنين الذين يحبهم الله، لأنه أكمل الناس محبة لله، وأحقهم بأن يحب ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه الله، والخلَّة ليس لغير الله فيها نصيب، بل قال: «**لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر** {٥١ق هـ ـ ١٣هـ} **خليلاً**» {م(٢٣٨٣)}[١] = علم مزيد مرتبة الخلة علىٰ مطلق المحبة.

والمقصود: هو أن الخلة والمحبة لله: تحقيق عبوديته، وإنما يغلط من يغلط في هذه من حيث يتوهمون أن العبودية مجرد ذلّ وخضوع فقط، لا محبة معه، وأن المحبة فيها

---

(١) **متفق عليه**. وتقدم في صفحة (١٠٧).

انبساط في الأهواء، أو إدلال لا تحتمله الربوبية، ولهذا يذكر عن ذي النون {ـ ٢٤٥هـ}[١] أنهم تكلموا عنده في مسألة المحبة فقال: أمسكوا عن هذه المسألة لا تسمعها النفوس فتدَّعيها.

وكره من كره من أهل المعرفة والعلم مجالسة أقوام يكثرون الكلام في المحبة بلا خشية.

وقال من قال من السلف: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق[٢]، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ[٣]، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروريّ[٤]. ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحِّد.

---

(١) هو ثوبان بن إبراهيم، أحد الزهّاد المشهورين من أهل مصر نوبي يراجع مجموع الفتاوى، الأصل، توفي بمصر سنة ٢٤٥هـ. وانظر «تهذيب حلية الأولياء» ٣/ ٢٢٢ (٤٥٦)، طبع المكتب الإسلامي.
وقال ابن تيمية عنه: وقع منه كلام أنكر عليه وعزره الحارث بن مسكين وطلبه المتوكل إلى بغداد واتهم بالزندقة وجعله الناس من الفلاسفة. «مجموع» ١١/ ٣٩٢.

(٢) الزنديق: هو من يبطن الكفر ويظهر الإيمان مع الدس الخفي، ومنه ما ينسب إلىٰ بعض المتصوفة مثل: رابعة العدوية وغيرها.

(٣) المرجئة: قوم يعتقدون أنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وقد تفرع عنهم أقوام خلطوا في العقائد ما شاءت لهم أهواؤهم فضلّوا وأضلّوا. وفي الزمن الأخير وجد منهم أفراد، ردّ عليهم بعض أهل العلم.

(٤) الحرورية: هم الذين خرجوا علىٰ علي ﷺ من جيشه بسبب التحكيم، وحاربوه عند قرية اسمها (حروراء) في العراق.

ولهذا وجد في المتأخرين من انبسط في دعوىٰ المحبة، حتىٰ أخرجه ذلك إلىٰ نوع من الرعونة والدعوىٰ التي تنافي العبودية، وتدخل العبد في نوع من الربوبية التي لا تصلح إلا لله، فيدَّعي أحدهم دعاوىٰ تتجاوز حدود الأنبياء والمرسلين، أو يطلب من الله ما لا يصلح بكل وجه إلا لله، لا يصلح للأنبياء ولا للمرسلين.

وهذا باب وقع فيه كثير من الشيوخ. وسببه: ضعف تحقيق العبودية التي بيَّنها الرسل، وحررها الأمر والنهي الذي جاءوا به، بل ضعف العقل الذي به يعرف العبد حقيقته. وإذا ضعف العقل، وقلص العلم بالدين؛ وفي النفس محبة طائشة جاهلة، انبسطت النفس بحمقها في ذلك، كما ينبسط الإنسان في محبة الإنسان مع حمقه وجهله، ويقول: أنا مُحب، فلا أؤاخذُ بما أفعله من أنواع يكون فيها عدوان وجهل، فهذا عين الضلال، وهو شبيه بقول اليهود والنصارى: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]. قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة: ١٨] فإن تعذيبه لهم بذنوبهم يقتضي أنهم غير محبوبين، ولا منسوبين إليه بنسبة البنوة، بل يقتضي أنهم مربوبون مخلوقون.

فمن كان الله يحبه استعمله فيما يحبه، ومحبوبه لا يفعل ما يبغضه الحق ويسخطه: من ﴿ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ﴾ [الحجرات: ٧].

ومَن فعل الكبائر وأصرّ عليها ولم يتب منها فإن الله يُبغِض منه ذلك، كما يحب منه ما يفعله من الخير، إذ حبه للعبد بحسب إيمانه وتقواه.

ومن ظن أن الذنوب لا تضره لكون الله يحبه مع إصراره عليها، كان بمنزلة من زعم أن تناول السم لا يضره مع مداومته عليه، وعدم تداويه منه لصحة مزاجه، ولو تدبر الأحمق ما قصَّ الله في كتابه من قصص أنبيائه، وما جرى لهم من التوبة والاستغفار، وما أُصيبوا به من أنواع البلاء الذي فيه تمحيص لهم وتطهير بحسب أحوالهم، علم بعض ضرر الذنوب بأصحابها، ولو كان أرفع الناس مقاماً؛ فإن المحب للمخلوق إذا لم يكن عارفاً بمحابِّه ولا مريداً لها، بل يعمل بمقتضىٰ الحب، وإن كان جهلاً وظلماً = كان ذلك سبباً لبغض المحبوب له، ونفوره عنه، بل سبباً لعقوبته.

وكثير من السالكين سلكوا في دعوىٰ حب الله أنواعاً من أمور الجهل بالدين: إما من تعدي حدود الله، وإما من تضييع حقوق الله، وإما من ادعاء الدعاوىٰ الباطلة التي لا حقيقة لها، كقول بعضهم: أيُّ مريد لي ترك في النار أحداً فأنا بريء منه. فقال الآخر: أيّ مريد لي ترك أحداً من المؤمنين يدخل النار فأنا منه بريء.

فالأول: جعل مريده يُخرج كل من في النار.

والثاني: جعل مريده يمنع أهل الكبائر من دخول النار.

ويقول بعضهم: إذا كان يوم القيامة نصبت خيمتي علىٰ جهنم حتىٰ لا يدخلها أحد.

وأمثال ذلك من الأقوال التي تُؤْثَرُ عن بعض المشايخ المشهورين. وهي إما كذب عليهم، وإما غلط منهم.

ومثل هذا قد يصدر في حال سكر وغلبة وفناء يسقط فيها تمييز الإنسان، أو يضعف حتىٰ لا يدري ما قال. والسكر هو لذة مع عدم تمييز. ولهذا كان من هؤلاء من إذا صحا استغفر من ذلك الكلام، والذين توسعوا من الشيوخ في سماع القصائد المتضمنة للحب والشوق واللوم والعذل والغرام، كان هذا أصل مقصدهم، فإن هذا الجنس يحرك ما في القلب من الحب كائناً ما كان، ولهذا أنزل الله محنة يمتحن بها المحب. فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. فلا يكون محباً لله إلا من يتبع رسوله، وطاعة الرسول ومتابعته لا تكون إلا بتحقيق العبودية. وكثير ممن يدَّعي المحبة يخرج عن شريعته وسنته ﷺ، ويدَّعي من الحالات ما لا يتسع هذا الموضع لذكره، حتىٰ قد يظن أحدهم سقوط الأمر وتحليل الحرام له، وغير ذلك مما فيه مخالفة شريعة الرسول وسنّته وطاعته.

بل قد جعل الله أساس محبته ومحبة رسوله، الجهاد في سبيله. والجهاد يتضمن كمال محبة ما أمر الله به، وكمال بغض ما نهىٰ الله عنه. ولهذا قال في صفة من ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ

أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

ولهذا كانت محبة هذه الأمة لله أكمل من محبة من قبلها، وعبوديتهم لله أكمل من عبودية من قبلهم. وأكمل هذه الأمة في ذلك هم أصحاب محمد ﷺ، ومن كان بهم أشبه كان ذلك فيه أكمل. فأين هذا من قوم يدّعون المحبة؟

وفي كلام بعض الشيوخ: المحبة نار تحرق في القلب ما سوىٰ مراد المحبوب، وأرادوا أن الكون كله قد أراد الله وجوده. فظنوا أن كمال المحبة أن يحب العبد كل شيء، حتىٰ ﴿ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]!! ولا يمكن أحد أن يحب كل موجود، بل يحب ما يلائمه وينفعه، ويبغض ما ينافيه ويضره، ولكن استفادوا بهذا الضلال اتباع أهوائهم، ثم زادهم انغماساً في أهوائهم وشهواتهم، فهم يحبون ما يهوونه، كالصور، والرئاسة، وفضول المال، والبدع المضلة، زاعمين أن هذا من محبة الله. ومن محبة الله بغض ما يبغضه الله ورسوله، وجهاد أهله بالنفس والمال.

وأصل ضلالهم: أن هذا القائل الذي قال: إن المحبة نار تحرق ما سوىٰ مراد المحبوب، قصد بمراد الله تعالىٰ: الإرادة الكونية في كل الموجودات.

أما لو قال مؤمن بالله وكتبه ورسله، هذه المقالة، فإنه يقصد الإرادة الدينية الشرعية التي هي بمعنىٰ محبته ورضاه، فكأنه

قال: تحرق من القلب ما سوىٰ المحبوب لله، وهذا معنىً صحيح، فإن من تمام الحب لله؛ ألّا يحب إلا ما يحبه الله، فإذا أحببت ما لا يحب؛ كانت المحبة ناقصة. وأما قضاؤه وقدره فهو يبغضه ويكرهه ويسخطه وينهىٰ عنه، فإن لم أوافقه في بغضه وكراهته وسخطه، لم أكن محباً له، بل محباً لما يبغضه.

فاتباع هذه الشريعة والقيام بالجهاد بها من أعظم الفروق بين أهل محبة الله وأوليائه الذين يحبهم ويحبونه، وبين من يدَّعي محبة الله ناظراً إلىٰ عموم ربوبيته، أو متبعاً لبعض البدع المخالفة لشريعته؛ فإن دعوىٰ هذه المحبة لله من جنس دعوىٰ اليهود والنصارىٰ المحبَّة لله؛ بل قد تكون دعوىٰ هؤلاء شراً من دعوىٰ اليهود والنصارىٰ، لما فيهم من النفاق الذي هم به ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، كما قد تكون دعوىٰ اليهود والنصارىٰ شراً من دعواهم إذا لم يصلوا إلىٰ مثل كفرهم.

وفي التوراة[١] والإنجيل من الترغيب في محبة الله ما هم متفقون عليه، حتىٰ إن ذلك عندهم أعظم وصايا الناموس[٢].

---

(١) في سفر تثنية الاشتراع ٦: ٥ ـ من العهد القديم ـ عند اليهود والنصارى.

(٢) هو في الأصل صاحب السِّرّ، وأهل الكتاب يسمون جبريل: الناموس الأكبر لأن الله خصه بالوحي والغيب الذي لا يطلع عليهما =

ففي الإنجيل؛ أعظم وصايا المسيح: (أن تحب الله بكل قلبك وعقلك ونفسك)[١] والنصارىٰ يدَّعون قيامهم بهذه المحبة، وأن ما هم فيه من الزهد والعبادة هو من ذلك، وهم برآء من محبة الله، إذ لم يتبعوا ما أحبه؛ بل ﴿ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد].

والله يبغض الكافرين ويمقتهم ويلعنهم، وهو سبحانه يحب من يحبه. لا يمكن أن يكون العبد محباً لله، والله تعالىٰ غير محب له، بل بقدر محبة العبد لربه يكون حب الله له، وإن كان جزاء الله لعبده أعظم. كما في الحديث الصحيح الإلـٰهي عن الله تعالىٰ أنه قال: **«من تقرَّب إليَّ شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً، ومن تقرَّب إليَّ ذراعاً تقرَّبت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»** {خ(٧٤٠٥)، م(٢٦٧٥)}[٢].

وقد أخبر الله سبحانه أنه ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران. التوبة: ٤و٧] ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة. آل عمران: ١٣٤و١٤٨. المائدة: ١٣و١٩]، و﴿ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران]، و ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة]؛ بل هو يحب من فعل ما أمر به

= غيره، وفي الغالب يطلق على صاحب سِر الخير ـ أو الخبير ـ كما أن الجاسوس صاحب سِر الشَّر، وتطلق أيضاً على الشريعة.

(١) في إنجيل متى ٢٢ : ٣٧، وإنجيل مرقس ١٢ : ٣٠، وينظر إنجيل لوقا ١٠ : ٢٧. وكل ذلك ليس محل قبول منا؛ إلا ما وافق القرآن الكريم.

(٢) رواه **البخاري ومسلم** عن أبي هريرة ﷺ.

من واجب ومستحب، كما في الحديث الصحيح: «**لا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتىٰ أُحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به...**»[١] الحديث {خ(٦٥٠٢)}، وكثير من المخطئين الذين ابتدعوا أشياء[٢] في الزهد والعبادة وقعوا في بعض ما وقع فيه النصارىٰ من دعوىٰ المحبة لله مع مخالفة شريعته، وترك المجاهدة في سبيله، ونحو ذلك، ويتمسكون في الدين الذي يتقربون به إلىٰ الله بنحو ما تمسك به النصارىٰ من الكلام المتشابه، والحكايات التي لا يُعرف صدق قائلها، ولو صدق لم يكن قائلها معصوماً، فيجعلون متبوعيهم شارعين لهم ديناً، كما جعل النصارىٰ قسيسيهم ورهبانهم شارعين لهم ديناً. ثم إنهم ينتقصون العبودية، ويدَّعون أن الخاصة يتعدَّونها. كما يدَّعي النصارىٰ في المسيح والقساوسة، ويثبتون لخاصتهم من المشاركة في الله، من جنس ما تثبته النصارىٰ في المسيح وأمه والقسيسين والرهبان إلىٰ أنواع أخر يطول شرحها في هذا الموضع.

وإنما الدين الحق هو تحقيق العبودية لله بكل وجه، وهو تحقيق محبة الله بكل درجة، وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ، وقد تكلم عليه الحافظ ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم والحكم».
كما أورد له الحافظ ابن حجر في «الفتح» شواهد فليرجع إليهما ولـ«الصحيحة» (١٦٤٠).

(٢) في نسخة: اتبعوا أشياخاً.

العبد لربه، وتكمل محبة الرب لعبده. وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا، وكلما كان في القلب حب لغير الله، كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك. وكلما كان فيه عبودية لغير الله كان فيه حب لغير الله بحسب ذلك.

وكل محبة لا تكون لله فهي باطلة، وكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل. فـ«**الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ما كان لله**»[1]، ولا يكون لله إلا ما أحبه الله ورسوله، وهو المشروع.

فكل عمل أريد به غير الله لم يكن لله، وكل عمل لا يوافق شرع الله لم يكن لله، بل لا يكون لله إلا ما جمع الوصفين: أن يكون لله، وأن يكون موافقاً لمحبة الله ورسوله، وهو الواجب والمستحب، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف].

فلا بد من العمل الصالح، وهو الواجب والمستحب، ولا بد أن يكون خالصاً لوجه الله تعالىٰ، كما قال تعالىٰ: **﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾** [البقرة]. وقال النبي ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**» {م(١٧١٨)}[2]. وقال النبي ﷺ: «**إنما**

---

(١) حسن. ت (١٨٩١/٢٤٣٨)، هـ (٣٣٢٠/٤١١٢) «المشكاة» (٥١٧٦) عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد ٦/١٤٦ (٢٥١١٩) ومسلم عن عائشة رضي الله عنها.

الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوىٰ؛ فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله، فهجرته إلىٰ الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه» {خ(١)، م(١٩٠٧)}[1].

وهذا الأصل هو أصل الدين، وبحسب تحقيقه يكون تحقيق الدين، وبه أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، وإليه دعا الرسول، وعليه جاهد، وبه أمر، وفيه رغب، وهو قطب الدين الذي تدور عليه رحاه.

والشرك غالب علىٰ النفوس، وهو كما جاء في الحديث: هو في هذه الأمة «**أخفىٰ من دبيب النمل**»[2]. وفي حديث آخر: قال أبو بكر {٥١ق هـ - ١٣هـ}: يا رسول الله! كيف ننجو منه، وهو أخفىٰ من دبيب النمل؟ فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «**أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من دِقِّه وجلِّه. قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**» {خد(٧١٦)}[3]. وكان عمر {٤٠ق هـ - ٢٣هـ} يقول في دعائه: اللهم

---

(١) رواه **البخاري ومسلم** عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) رواه البزار (٣٥٦٦؛ زوائده) بلفظ: «الشرك أخفىٰ في أمتي من دبيب النمل علىٰ الصفا». وفي سنده: عبد الأعلىٰ بن أعين، وهو ضعيف.

(٣) رواه أبو يَعلىٰ (٥٩) بمعناه عن شيخه عمرو بن الحصين العقيلي، وهو متروك كما قال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٢٢٣.

اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً.

وكثيراً ما يخالط النفوس من الشهوات الخفية ما يفسد عليها تحقيق محبتها لله وعبوديتها له، وإخلاص دينها له، كما قال شدَّاد بن أوس {ـ ٥٨هـ}[١]: يا نعايا العرب! يا نعايا العرب! إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية[٢]. وقيل لأبي داود السجستاني {٢٠٢ ـ ٢٧٥هـ}[٣]: وما الشهوة الخفية؟ قال: حب الرئاسة {خط ٩/ ٥٨}.

وعن كعب بن مالك {ـ ٥٠هـ}، عن النبي ﷺ أنه قال: **«ما ذئبان جائعان أُرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء علىٰ المال والشرف لدينه»**[٤] قال الترمذي {(٢٣٧٦)}: حديث حسن صحيح.

---

(١) هو شداد بن أوس بن ثابت الأنصاري، صحابي، ولاه عمر إمارة حمص، وبعد مقتل عثمان عكف علىٰ العبادة، كان فصيحاً حليماً حكيماً، توفي في القدس سنة ٧٥هـ، وله في «المسند» والكتب الستة (١٩) حديثاً. «الأعلام» ٤/ ٢٣٢ للزركلي.

(٢) هب (٦٨٢٧) موقوفاً، و(٦٨٢٤) مرفوعاً، وتنظر «الصحيحة» (٥٠٨). طبع المكتب الإسلامي.

(٣) سليمان بن الأشعث السجستاني إمام أهل الحديث في زمانه وقد تتلمذ علىٰ يدي الإمام أحمد، وله: «السنن» و«مسائل الإمام أحمد» والعديد من المؤلفات، توفي سنة ٢٧٥ رحمه الله.

(٤) رواه أحمد ٣/ ٤٥٦، (١٥٧٦٥) والترمذي («صحيح سننه» =

فبيَّن ﷺ أن الحرص على المال والشرف، في إفساد الدين، لا ينقص عن إفساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم؛ وذلك بيّن، فإن الدين السليم لا يكون فيه هذا الحرص، وذلك أن القلب إذا ذاق حلاوة عبوديته لله ومحبته له، لم يكن شيء أحبَّ إليه من ذلك حتىٰ يقدمه عليه، وبذلك يصرف ـ عن أهل الإخلاص لله ـ السوء والفحشاء، كما قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ[1] ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف].

فإن المخلِص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه عن عبوديته لغيره، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره؛ إذ ليس عند القلب السليم أحلىٰ ولا ألذَّ ولا أطيب ولا أسر ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله ومحبته له، وإخلاصه الدين له؛ وذلك يقتضي انجذاب القلب إلىٰ الله، فيصير القلب منيباً إلىٰ الله، خائفاً منه، راغباً راهباً، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق]. إذ

= ١٩٣٥/ ٢٤٩٥) وأبو يَعلىٰ {وعنه ابن حبان (٣٢٢٨)، وهو في أبي يعلى (٦٤٤٩) من حديث أبي هريرة}. وقال المنذري: إسناده جيد.

وقد كتب الحافظ ابن رجب في هذا الحديث رسالة قيّمة طبعت مع كتاب «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر.

(١) قراءة أبي عمرو ـ السائدة في عصر المصنف ـ هي بكسر اللام، وهي الأقرب لاستشهاد المؤلف؛ إذ هي بفتح اللام حمّالة لأوجهٍ.

المحب يخاف من زوال مطلوبه؛ أو حصول مرغوبه، فلا يكونُ عبدَ اللهِ ومُحِبَّهُ، إلا بين خوف ورجاء، كما قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء].

وإذا كان العبد مخلِصاً لله: اجتباه ربه، فأحيا قلبه واجتذبه إليه، فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء، ويخاف من حصول ضد ذلك، بخلاف القلب الذي لم يخلص لله؛ فإن فيه طلباً وإرادة وحباً مطلقاً، فيهوىٰ كل ما يسنح له ويتشبث بما يهواه، كالغصن، أيَّ نسيم مرَّ به عطفَه وأمالَه، فتارة تجتذبه الصور المحرمة، وغير المحرمة فيبقىٰ أسيراً عبداً لمن لو اتخذه هو عبداً له لكان ذلك عيباً ونقصاً وذماً.

وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة، فترضيه الكلمة، وتغضبه الكلمة ويستعبده من يثني عليه ولو بالباطل، ويعادي من يذمه ولو بالحق.

وتارة يستعبده الدرهم والدينار، وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب، والقلوب تهواها، فيتخذ ﴿إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣. الجاثية: ٢٣]، ويتبع ﴿هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

ومن لم يكن خالصاً لله، عبداً له، قد صار قلبه معبَّداً لربه وحده لا شريك له، بحيث يكون الله أحبّ إليه من كل ما سواه، ويكون ذليلاً له خاضعاً؛ . . . وإلا؛ استعبدته الكائنات،

واستولت على قلبه الشياطين، ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [الأعراف] ﴿إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء:٢٧] وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله.

وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه.

فالقلب إن لم يكن حنيفاً مقبلاً على الله معرضاً عما سواه؛ . . . وإلا؛ كان مشركاً، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم].

وقد جعل الله سبحانه إبراهيم وآل إبراهيم أئمة لهؤلاء الحنفاء المخلصين أهلِ محبة الله وعبادته، وإخلاص الدين له، كما جعل فرعون وآل فرعون أئمة المشركين المتبعين أهواءهم. قال تعالى في إبراهيم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء]. وقال في فرعون وقومه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص]. ولهذا يصير أتباع فرعون أولاً إلى ألّا يميزوا بين ما

يحبه الله ويرضاه، وبين ما قدر الله وقضاه، بل ينظرون إلىٰ المشيئة المطلقة الشاملة، ثم في آخر الأمر لا يميزون بين الخالق والمخلوق، بل يجعلون وجود هذا وجود هذا.

ويقول محققوهم: الشريعة فيها طاعة ومعصية، والحقيقة فيها معصية بلا طاعة، والتحقيق ليس فيه طاعة ولا معصية. وهذا تحقيق مذهب فرعون وقومه الذين أنكروا الخالق، وأنكروا تكليمه لعبده موسىٰ، وما أرسله به من الأمر والنهي.

وأما إبراهيم وآل إبراهيم الحنفاء من الأنبياء والمؤمنين بهم، فهم يعلمون أنه لا بد من الفرق بين الخالق والمخلوق، ولا بد من الفرق بين الطاعة والمعصية، وأن العبد كلما ازداد تحقيقاً لهذا الفرق، ازدادت محبته لله وعبوديته له، وطاعته له، وإعراضه عن عبادة غيره ومحبة غيره، وطاعة غيره.

وهؤلاء المشركون الضالون يسوُّون بين الله وبين خلقه. والخليل يقول: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء]، ويتمسكون بالمتشابه من كلام المشايخ كما فعلت النصارىٰ.

مثال ذلك: اسم (الفناء) فإن الفناء ثلاثة أنواع:

نوع للكاملين من الأنبياء والأولياء.

ونوع للقاصدين من الأولياء والصالحين.

ونوع للمنافقين الملحدين المشبهين.

فأما الأول: فهو الفناء عن إرادة ما سوىٰ الله، بحيث لا

يحب إلا الله، ولا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يطلب من غيره. وهو المعنىٰ الذي يجب أن يقصد بقول الشيخ أبي يزيد {١٨٨ ـ ٢٦١هـ}(١) حيث قال: (أريد ألّا أريد إلا ما يريد)، أي المراد المحبوب المرضي. وهو المراد بالإرادة الدينية. وكمال العبد ألّا يريد ولا يحب ولا يرضىٰ إلا ما أراده الله ورضيه وأحبه، وهو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب، ولا يحب إلا ما يحبه الله، كالملائكة والأنبياء والصالحين، وهذا معنىٰ قولهم في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء]. قالوا: هو السليم مما سوىٰ الله، أو مما سوىٰ عبادة الله، أو مما سوىٰ إرادة الله، أو مما سوىٰ محبة الله، فالمعنىٰ واحد وهذا المعنىٰ إن سُمي فناءً، أو لم يسمَّ، هو أول الإسلام وآخره، وباطن الدين وظاهره.

وأما النوع الثاني: فهو الفناء عن شهود السِّوىٰ، وهذا يحصل لكثير من السالكين، فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلىٰ ذكر الله وعبادته ومحبته، وضعف قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد، وترىٰ غير ما تقصد، لا يخطر بقلوبهم غير الله، بل ولا يشعرون إلا به. كما قيل في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن

---

(١) هو طيفور بن عيسىٰ البسطامي الزاهد المشهور، ولم يثبت أنه من أهل وحدة الوجود، كما يزعم أتباعها، توفي سنة ٢٦١هـ. وانظر: «تهذيب حلية الأولياء» للشيخ صالح أحمد الشامي ٣/ ٢٤٦ (٤٥٨)، طبع المكتب الإسلامي.

كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص]. قالوا: فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسىٰ. وهذا كثيراً ما يعرض لمن دهمه أمر من الأمور، إما حب، وإما خوف، وإما رجاء؛ يبقىٰ قلبه منصرفاً عن كل شيء، إلا عما قد أحبه أو خافه أو طلبه؛ بحيث يكون عند استغراقه في ذلك لا يشعر بغيره.

فإذا قوي علىٰ صاحب الفناء هذا، فإنه يغيب بموجوده عن وجوده، وبمشهوده عن شهوده، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته، حتىٰ يفنىٰ مَنْ لم يكن، وهي المخلوقات؛ العبد فمن سواه[1]، ويبقىٰ مَنْ لم يزل، وهو الرب تعالىٰ. والمراد فناؤها في شهود العبد وذكره، وفناؤه عن أن يدركها أو يشهدها. وإذا قوي هذا، ضعف المحب حتىٰ يضطرب في تمييزه، فقد يظن أنه هو محبوبه، كما يذكر أن رجلاً ألقىٰ نفسه في اليم، فألقىٰ مُحِبُّه نفسه خلفه. فقال: أنا وقعت، فما أوقعك خلفي؟ قال: غبت بك عني، فظننت أنك أني.

وهذا الموضع زلّت فيه أقوام، وظنوا أنه اتحاد، وأن المحب يتحد بالمحبوب، حتىٰ لا يكون بينهما فرق في نفس وجودهما. وهذا غلط، فإن الخالق لا يتَّحد به شيء أصلاً، بل لا يمكن أن يتحد شيء بشيء، إلا إذا استحالا وفسدت حقيقة كل منهما، وحصل من اتحادهما أمر ثالث، لا هو هذا

---

(١) في نسخة: المعبدة ممن سواه.

ولا هذا، كما إذا اتحد الماء واللبن، والماء والخمر، ونحو ذلك. ولكن يتحد المراد والمحبوب والمراد والمكروه، ويتفقان في نوع الإرادة والكراهة فيحب هذا ما يحب هذا ويبغض هذا ما يبغض هذا، ويرضىٰ ما يرضىٰ، ويسخط ما يسخط، ويكره ما يكره، ويوالي من يوالي، ويعادي من يعادي.

وهذا الفناء كله فيه نقص.

وأكابر الأولياء، كأبي بكر {٥١ق هـ - ١٣هـ} وعمر {٤٠ق هـ - ٢٣هـ}، والسابقين الأولين ﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠]، لم يقعوا في هذا الفناء، فضلاً عمن هو فوقهم من الأنبياء. وإنما وقع شيء من هذا بعد الصحابة.

وكذلك كل ما كان من هذا النمط مما فيه غيبة العقل وعدم التمييز لما يرد علىٰ القلب من أحوال الإيمان.

فإن الصحابة ﷺ كانوا أكمل وأقوىٰ. وأثبت في الأحوال الإيمانية من أن تغيب عقولهم، أو يحصل لهم غشي أو صعق أو سكر، أو فناء، أو وَلَه، أو جنون.

وإنما كان مبادئ هذه الأمور في التابعين من عبَّاد البصرة، فإنه كان فيهم من يُغشىٰ عليه إذا سمع القرآن، ومنهم من يموت، كأبي جهير الضرير { - قبل ١٢٣هـ}[1]،

---

(١) اسمه مسعود، وهو ممن أخذ السلوك عن الحسن البصري. مات =

وزرارة بن أوفىٰ {ـ ٩٣هـ}[١] قاضي البصرة.

وكذلك صار في شيوخ الصوفية من يَعْرِضُ له من الفناء والسكر ما يضعُفُ معه تمييزه، حتىٰ يقول في تلك الحال من الأقوال ما إذا صحا عرف أنه غالطٌ فيه، كما يُحكىٰ نحو ذلك عن مثل أبي يزيد {١٨٨ ـ ٢٦١هـ} وأبي الحُسَين النوري {ـ ٢٩٥هـ}[٢] وأبي بكر الشبلي {٢٤٧ ـ ٣٣٤هـ}[٣] وأمثالهم بخلاف أبي سليمان الداراني {ـ ٢١٥هـ}[٤] ومعروف الكرخي {ـ ٢٠٠هـ}[٥] والفضيل بن

= بقراءة صالح المُرّيّ لـ ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان].

(١) قصته في: ت: (٤٤٧/٣٦٦) **بإسناد حسن**. وهو: زرارة بن أوفىٰ العامري الحرشي؛ أبو حاجب البصري القاضي، روىٰ عن أبي هريرة وعبد الله بن سلام وغيرهما. قال النسائي: ثقة، وذكره ابن حبان في «الثقات»، توفي سنة ٩٣هـ. وانظر: «تهذيب حلية الأولياء» ١/ ٣٨٤ (١٩١).

(٢) هو أحمد بن محمد المعروف بالنوري. توفي سنة ٢٩٥هـ. انظر: «تهذيب حلية الأولياء» ٣/ ٣٦٨ (٥٧٠).

(٣) هو: دلف بن جحدر الشبلي الناسك، من أبناء الوزراء، توفي سنة ٣٣٤هـ ببغداد. وانظر «تهذيب حلية الأولياء» ٣/ ٤٥٩ (٦٤٦).

(٤) عبد الرحمٰن بن أحمد العنسي الزاهد من أهل داريا غربي دمشق، كانت وفاته سنة ٢١٥هـ. وانظر «الروضة الريا في من دفن بداريا» للشيخ عبد الرحمٰن بن محمد العمادي، تحقيق نذير حسن عتمة رحمه الله الصفحة ٣١، و«مواعظ الإمام أبي سليمان الداراني» للشيخ صالح أحمد الشامي، وهما من طبع المكتب الإسلامي.

(٥) هو معروف بن فيروز الكرخي، أبو محفوظ، ولد في الكرخ، =

عياض {١٠٥ ـ ١٨٧هـ}[١] بل وبخلاف الجنيد { ـ٢٩٧هـ}[٢] وأمثاله، ممن كانت عقولهم وتمييزهم يصحبهم في أحوالهم، فلا يقعون في مثل هذا الفناء والسكر ونحوه، بل الكُمَّلُ تكون قلوبهم ليس فيها سوىٰ محبة الله وإرادته وعبادته؛ وعندهم من سَعَةِ العلم والتمييز ما يشهدون الأمور علىٰ ما هي عليه، بل يشهدون المخلوقات قائمة بأمر الله، مدبَّرة بمشيئته، بل مستجيبة له، قانتة له، فيكون لهم فيها ﴿٧ تَبۡصِرَةً وَذِكۡرَىٰ﴾ [قَ] ويكون ما يشهدونه من ذلك مؤيِّداً ومُمِداً لما في قلوبهم من إخلاص الدين، وتجريد التوحيد له، والعبادة له وحده لا شريك له.

وهذه هي الحقيقة التي دعا إليها القرآن، وقام بها أهل تحقيق الإيمان والكمَّلُ من أهل العرفان، ونبينا ﷺ إمام هؤلاء وأكملهم، ولهذا لما عُرِجَ به إلىٰ السماوات وعاين ما هنالك من الآيات، وأُوحِيَ إليه ما أُوحِيَ من أنواع المناجاة، أصبح فيهم وهو لم يتغير حاله، ولا ظهر عليه ذلك، بخلاف

= وتوفي ببغداد سنة ٢٠٠هـ. انظر: «تهذيب حلية الأولياء» ٣/ ١٠١ للشيخ صالح أحمد الشامي (٤٣٩).

(١) انظر: «مواعظ الإمام فضيل بن عياض»، و«تهذيب حلية الأولياء» للشيخ صالح أحمد الشامي ٣/ ٣ (٣٩٧).

(٢) الجنيد بن محمد البغدادي القواريري الإمام الفصيح الزاهد الموحد المتبع للكتاب والسنّة، المتوفىٰ سنة ٢٩٧هـ. وانظر: «تهذيب حلية الأولياء» ٣/ ٣٧٠ (٥٧١).

ما كان يظهر علىٰ موسىٰ من التغشي صلىٰ الله عليهم وسلم أجمعين.

وأما النوع الثالث: مما قد يسمىٰ فناء. فهو أن يشهد أن لا موجود إلا الله، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق، فلا فرق بين الرب والعبد، فهذا فناء أهل الضلال والإلحاد، الواقعين في الحلول والاتحاد، وهذا يبرأ منه المشايخ إذ قال أحدهم: ما أرىٰ غير الله، أو لا أنظر إلىٰ غير الله، ونحو ذلك، فمرادهم بذلك ما أرىٰ رباً غيره، ولا خالقاً ولا مدبراً غيره، ولا إلـٰهاً لي غيره، ولا أنظر إلىٰ غيره محبة له أو خوفاً منه أو رجاء له، فإن العين تنظر إلىٰ ما يتعلق به القلب. فمن أحبّ شيئاً أو رجاه أو خافه التفت إليه، وإذا لم يكن في القلب محبة له ولا رجاء له، ولا خوف منه، ولا بغض له، ولا غير ذلك من تعلق القلب له، لم يقصد القلب أن يلتفت إليه، ولا أن ينظر إليه، ولا أن يراه، وإن رآه اتفاقاً رؤية مجردة، كان كما لو رأىٰ حائطاً ونحوه مما ليس في قلبه تعلق به.

والمشايخ الصالحون ﷺ يذكرون شيئاً من تجريد التوحيد وتحقيق إخلاص الدين كله، بحيث لا يكون العبد ملتفتاً إلىٰ غير الله، ولا ناظراً إلىٰ ما سواه، لا حباً له ولا خوفاً منه، ولا رجاء له، بل يكون القلب فارغاً من المخلوقات، خالياً منها، لا ينظر إليها إلا بنور الله. فبالحق يسمع، وبالحق

يبصر، وبالحق يبطش، وبالحق يمشي[١]. فيحب منها ما يحبه الله ويبغض منها ما يبغضه الله ويوالي منها ما والاه الله، ويعادي منها ما عاداه الله، ويخاف الله فيها، ولا يخافها في الله، ويرجو الله فيها، ولا يرجوها في الله؛ فهذا هو القلب السليم الحنيف الموحد المسلم المؤمن المحقق العارف بمعرفة الأنبياء والمرسلين وبحقيقتهم وتوحيدهم.

فهذا النوع الثالث ـ الذي هو الفناء في الوجود ـ: هو تحقيق آل فرعون ومعرفتهم وتوحيدهم؛ كالقرامطة[٢] وأمثالهم.

وأما النوع الذي عليه أتباع الأنبياء فهو الفناء المحمود، الذي يكون صاحبه به ممن أثنىٰ الله عليهم من أوليائه المتقين، وحزبه المفلحين، وجنده الغالبين.

وليس مراد المشايخ والصالحين بهذا القول، أن الذي أراه بعيني من المخلوقات: هو رب الأرض والسماوات، فإن هذا لا يقوله إلا من هو في غاية الضلال والفساد؛ إما فساد العقل، وإما فسادِ الاعتقاد. فهو متردد بين الجنون والإلحاد.

وكل المشايخ الذين يقتدىٰ بهم في الدين متفقون علىٰ ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، من أن الخالق سبحانه مباين

---

(١) انظر في آخر الرسالة: شرح شيخ الإسلام ابن تيمية لكلمة الشيخ عبد القادر الجيلاني في هذا المعنىٰ.

(٢) انظر في تعريفهم: رسالة الإمام ابن الجوزي بتحقيق الدكتور الشيخ محمد بن لطفي الصباغ، طبع المكتب الإسلامي.

للمخلوقات، وليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، وأنه يجب إفراد القديم عن الحادث، وتمييز الخالق عن المخلوق، وهذا في كلامهم أكثر من أن يمكن ذكره هنا.

وهم قد تكلموا علىٰ ما يعرض للقلوب من الأمراض والشبهات؛ فإن بعض الناس قد يشهد وجود المخلوقات، فيظنه خالقَ الأرض والسماوات ـ لعدم التمييز والفرقانِ في قلبه ـ بمنزلة من رأىٰ شعاع الشمس فظن أن ذلك هو الشمس التي في السماء.

وهم قد يتكلمون في الفرق والجمع، ويدخل في ذلك من العبارات المختلفة نظير ما دخل في الفناء.

فإن العبد إذا شهد التفرقة والكثرة في المخلوقات، يبقىٰ قلبه متعلقاً بها مشتتاً ناظراً إليها، وتعلقه بها؛ إما محبة، وإما خوفاً، وإما رجاء، فإذا انتقل إلىٰ الجمع اجتمع قلبه علىٰ توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فالتفت قلبه إلىٰ الله بعد التفاته إلىٰ المخلوقين، فصارت محبته إلىٰ ربه، وخوفه من ربه، ورجاؤه لربه، واستعانته بربه، وهو في هذا الحال قد لا يسع قلبه النظر إلىٰ المخلوق، ليفرّق بين الخالق والمخلوق فقد يكون مجتمعاً علىٰ الحق، معرضاً عن الخلق، نظراً وقصداً، وهو نظير النوع الثاني من الفناء.

ولكن بعد ذلك الفرق الثاني، وهو أن يشهد أن المخلوقات

قائمة بالله، مدبرة بأمره، ويشهد كثرتها معدومة بوحدانية الله ﷻ، وأنه سبحانه رب المصنوعات وإلـٰهها، وخالقها ومالكها، فيكون ـ مع اجتماع قلبه علىٰ الله إخلاصاً ومحبة وخوفاً ورجاء واستعانة وتوكلاً علىٰ الله وموالاة فيه، ومعاداة فيه وأمثال ذلك ـ ناظراً إلىٰ الفرق بين الخالق والمخلوق، مميزاً بين هذا وهذا، يشهد تفرق المخلوقات وكثرتها، مع شهادته أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه، وأنه ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [القصص: ٧٠].

وهذا هو الشهود الصحيح المستقيم، وذلك واجب في علم القلب وشهادته وذكره ومعرفته، وفي حال القلب وعبادته، وقصده وإرادته، ومحبته وموالاته وطاعته.

وذلك تحقيق شهادة أن لا إلـٰه إلا الله، فإنها تنفي عن قلبه ألوهية ما سوىٰ الحق، وتثبت في قلبه ألوهية الحق.

فيكون نافياً لألوهية كل شيء من المخلوقات، مثبتاً لألوهية رب العالمين، ورب الأرض والسماوات، وذلك يتضمن اجتماع القلب علىٰ الله، وعلىٰ مفارقة ما سواه، فيكون مفرقاً في علمه وقصده، في شهادته وإرادته، في معرفته ومحبته: بين الخالق والمخلوق، بحيث يكون عالماً بالله تعالىٰ، ذاكراً له، عارفاً به. وهو مع ذلك عالم بمباينته لخلقه، وانفراده عنهم، وتوحده دونهم، ويكون محباً لله، معظماً له، عابداً له، راجياً له، خائفاً منه. محباً فيه، موالياً فيه، معادياً فيه، مستعيناً به، متوكلاً عليه. ممتنعاً عن عبادة غيره، والتوكل عليه،

والاستعانة به، والخوف منه، والرجاء له، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والطاعة لأمره، وأمثال ذلك مما هو من خصائص إلـٰهية الله سبحانه وتعالى.

وإقراره بألوهية الله تعالىٰ دون ما سواه، يتضمن إقراره بربوبيته وهو أنه رب كل شيء ومليكه وخالقه ومدبِّره، فحينئذ يكون موحداً لله.

ويبين ذلك أن أفضل الذكر: «لا إلـٰه إلا الله» كما رواه الترمذي {(٣٣٨٣)}، وابن أبي الدنيا[١]، وغيرهما مرفوعاً إلىٰ النبي ﷺ أنه قال: **«أفضل الذكر: لا إلـٰه إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله»**[٢]. وفي «الموطإ» وغيره عن طلحة بن عبيد الله بن كريز أن النبي ﷺ قال: **«أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو علىٰ كل شيء قدير»**[٣].

---

(١) هو: عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن أبي الدنيا الأموي مولاهم، أبو بكر (٢٠٨ ـ ٢٨١هـ)، حافظ للحديث، مُكثر من التصنيف، أدَّب الخليفة المعتضد في حداثته ثم أدَّب ابنه المكتفي، له مصنفات بلغت (١٦٤) كتاباً.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٠٢) والترمذي («صحيح سننه» ٢٦٩٤/٣٦٢٣) وقال: حديث حسن غريب، وهو حديث حسن، وصححه ابن حبان (٢٣٢٦)، ورواه الحاكم ٤٩٨/١ وصححه، ووافقه الذهبي.

وانظر: «تخريج مشكاة المصابيح» (٢٣٠٦).

(٣) رواه مالك في «الموطأ» مرسلاً (١/ ١٤٠ كتاب القرآن (٣٢)). =

ومن زعم[١] أن هذا ذكر العامة، وأن ذكر الخاصة: هو الاسم المفرد، وذكر خاصة الخاصة: هو الاسم المضمر، فهم ضالّون غالطون، واحتجاج بعضهم علىٰ ذلك بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام]: من أبين غلط هؤلاء؛ فإن الاسم [الله][٢]، مذكور في الأمر بجواب الاستفهام في الآية قبله وهو قوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ [الأنعام: ٩١]. أي: الله هو الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسىٰ، فالاسم [الله] مبتدأ، خبره قد دل عليه الاستفهام، كما في نظائر ذلك؛ تقول: من جاره؟ فيقول: زيدٌ.

وأما الاسم المفرد مُظهراً أو مُضمراً، فليس بكلام تام، ولا جملة مفيدة، ولا يتعلق به إيمان ولا كفر، ولا أمر ولا نهي.

ولم يذكر ذلك أحد من سلف الأمة، ولا شرع ذلك رسول الله ﷺ، ولا يعطي القلبَ بنفسه معرفة مفيدة، ولا حالاً نافعاً، وإنما يعطيه تصوراً مطلقاً لا يُحكم عليه بنفي ولا إثبات. فإن لم يقترن به من معرفة القلب وحاله، ما يفيد

= وانظر: «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٣٧/ ٣٨٣٧)، و«الأحاديث الصحيحة» (١٥٠٣)، و«صحيح الجامع الصغير» (١١٠٢).

(١) هو الغزالي، كما في «المجموع» ١٠/ ٣٩٦.

(٢) في نسخة: هو.

بنفسه؛ . . . ، وإلا؛ لم يكن فيه فائدة، والشريعة إنما تشرع من الأذكار ما يفيد بنفسه، لا ما تكون الفائدة حاصلة بغيره.

وقد وقع بعض من واظب علىٰ هذا الذكر في فنون من الإلحاد، وأنواع من الاتحاد، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

وما يذكر عن بعض الشيوخ من أنه قال: أخاف أن أموت بين النفي والإثبات، حال لا يقتدىٰ فيها بصاحبها؛ فإن في ذلك من الغلط ما لا خفاء به؛ إذ لو مات العبد في هذه الحال، لم يمت إلا علىٰ ما قصده ونواه؛ إذ الأعمال بالنيات. وقد ثبت أن النبي ﷺ أمر بتلقين الميت: **«لا إلـٰه إلا الله»** {م(٩١٦)}[١]، وقال: **«من كان آخر كلامه: لا إلـٰه إلا الله دخل الجنة»** {د(٣١١٦)}[٢]. ولو كان ما ذكره محذوراً، لم يلقن الميت كلمة يخاف أن يموت في أثنائها موتاً غير محمود، بل كان يلقن ما اختاره من ذكر الاسم المفرد.

والذكر بالاسم المضمر المفرد أبعد عن السنة، وأدخل في البدعة، وأقرب إلىٰ ضلال الشيطان؛ فإن من قال: يا هو يا

---

(١) رواه **مسلم**، وأبو داود (٢٦٧٤/٣١١٧)، والترمذي (٧٨١/ ٩٨٩) والنسائي (١٧٢٢/١٨٢٦)، وأحمد ٣/٣ و١٥٢ (١٠٩٧٥ و١٢٥٢٧). وانظر: كتاب «أحكام الجنائز» المسألة (١٤).

(٢) رواه أبو داود، والحاكم ١/ ٣٥١ وقال: صحيح الإسناد. وانظر: «أحكام الجنائز» المسألة (٢٥).

هو، أو: هو هو، ونحو ذلك، لم يكن الضمير عائداً إلا إلىٰ ما يصوره قلبه، والقلب قد يهتدي وقد يضل(١).

وقد صنّف صاحب «الفصوص»(٢) كتاباً سماه كتاب «الهو»، وزعم بعضهم أن قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧]. معناه: وما يعلم تأويل هذا الاسم الذي هو الْهُو، وإن كان هذا مما اتفق المسلمون بل العقلاء علىٰ أنه من أبين الباطل، فقد يظن ذلك من يظنه من هؤلاء، حتىٰ قلت مرة لبعض من قال شيئاً من ذلك: لو كان هذا ما قلتَه لكُتبت الآية: وما يعلم تأويل (هو) منفصلةً.

ثم كثيراً ما يذكر بعض الشيوخ أنه يحتج علىٰ قول القائل: (الله) بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام:٩١] ويظن أن الله أمر نبيه بأن يقول الاسم المفرد، وهذا غلط باتفاق أهل العلم، فإن قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، معناه: الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسىٰ، وهو جواب لقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:٩١] أي: الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسىٰ، ردّ بذلك قول من قال: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٩١] فقال: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ

---

(١) إلىٰ هنا انتهت النسخة الهندية.

(٢) هو: محمد بن علي بن محمد الحاتمي، المشهور بابن عربي الفيلسوف، من دعاة وحدة الوجود، المتوفىٰ سنة ٦٣٨هـ بدمشق.

﴿ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ [الأنعام:٩١] ثم قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أنزله، ثم ذر هؤلاء المكذّبين ﴿فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

ومما يبين ما تقدم، ما ذكره سيبويه {١٤٨ ـ ١٨٠هـ، الكتاب ١/ ١٢٢} وغيره من أئمة النحو: أن العرب يحكون بالقول ما كان كلاماً، لا يحكون به ما كان قولاً. فالقول لا يُحكىٰ به إلا كلام تام، أو جملة اسمية، أو جملة فعلية، ولهذا يكسرون (إن) إذا جاءت بعد القول، فالقول لا يُحكىٰ به اسم؛ والله تعالىٰ لا يأمر أحداً بذكر اسم مفرد، ولا شرع للمسلمين.

والاسم المجرد لا يفيد شيئاً من الإيمان باتفاق أهل الإسلام، ولا يُؤمر به في شيء من العبادات، ولا في شيء من المخاطبات.

ونظير من اقتصر علىٰ الاسم المفرد: ما يُذكر أن بعض الأعراب مرَّ بمؤذن يقول: (أشهد أن محمداً رسولَ الله) ـ بالنصب ـ فقال: ماذا يقول هذا؟ هذا الاسم، فأين الخبر عنه الذي يتم به الكلام؟

وما في القرآن من قوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾ [المزمل] وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلىٰ] وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلىٰ] وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة:و٩٦. الحاقة:٥٢] ونحو ذلك: لا يقتضي ذكره مفرداً.

بل في «السنن» {د(٨٦٩)} أنه لما نزل قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة:و٩٦. الحاقة:٥٢] قال: «**اجعلوها في ركوعكم**»، ولما نزل قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلىٰ] قال: «**اجعلوها في سجودكم**»[1]. فشرع لهم أن يقولوا في الركوع: «سبحان ربي العظيم» وفي السجود: «سبحان ربي الأعلىٰ». وفي «الصحيح» {م(٧٧٢)} أنه كان يقول في ركوعه: «**سبحان ربي العظيم**» وفي سجوده: «**سبحان ربي الأعلىٰ**»[2]. وهذا هو معنىٰ قوله: «**اجعلوها في ركوعكم وسجودكم**» باتفاق المسلمين.

فتسبيح اسم ربه الأعلىٰ وذكر اسم ربه ونحو ذلك هو بالكلام التام المفيد؛ كما في «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال: «**أفضل الكلام بعد القرآن أربع ـ وهن من القرآن ـ:** ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف:١٠٨...]، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، و﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:١٩. الصافات:٣٥]، **والله أكبر**»[3]. وفي «الصحيح» {خ(٦٤٠٦)،

---

(١) رواه أحمد في «المسند» ٤/ ١٥٥ (١٧٣٨٢)، وأبو داود، وابن ماجه (١٨٦/ ٨٨٧) وإسناده ضعيف. وانظر: «زاد المسير» ٩/ ٨٧.

(٢) رواه أحمد ٥/ ٣٨٢ (٢٣٢٣٢) وأبو داود (٧٧٤/ ٨٧١)، والترمذي (٢١٥/ ٢٦٢)، وابن ماجه (٧٢٥/ ٨٨٨).

(٣) رواه مسلم (٢١٣٧) بلفظ: «أحبّ الكلام إلىٰ الله أربع: سبحان الله..». ورواه ابن حبان (٨٣٩) بلفظ: «أفضل الكلام» وجملة: (بعد {وهن من} القرآن) ليست عندهما. =

م(٢٦٩٤)} عنه ﷺ أنه قال: «**كلمتان خفيفتان علىٰ اللسان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلىٰ الرحمـٰن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»[1].

وفي «**الصحيحين**» {خ(٣٢٩٣)، م(٢٦٩١)} عنه ﷺ أنه قال: «**من قال في يومه مئة مرة: لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له** ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [التغابن] **كتب الله له حِرْزاً من الشيطان يومه ذلك، حتىٰ يمسي، ولم يأتِ أحد بأفضل مما جاء به، إلا رجل قال مثل ما قال أو زاد عليه**». و«**من قال في يومه مئة مرة: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، حُطَّت عنه خطاياه، ولو كانت مثل زبد البحر**» {خ(٦٤٠٥)، م(٢٦٩١)}. وفي «الموطإ» وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «**أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له** ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

= هي في: حم ٥/ ١١(٢٠٠٦٩)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٦٨٣). و«الصحيحة» (٣٤٦). وجملة (الله أكبر) تؤخذ من الأوامر القرآنية وهي في ثلاث آيات: ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥. الحج: ٣٧] ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المدثر] ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ۝١١١﴾ [الإسراء]. وأما باللفظ فلم ترد في القرآن إلا بكلمة مضافة إلى لفظ الجلالة، وهي في ثلاث آيات: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [غافر: ١٠].

(١) رواه **البخاري ومسلم** عن أبي هريرة.

﴿١﴾ [التغابن]»[1]. وفي «سنن ابن ماجه» {(٣٨٠٠)} وغيره عنه ﷺ أنه قال: «**أفضل الذكر: لا إله إلا الله وأفضل الدعاء: الحمد لله**»[2].

ومثل هذه الأحاديث كثيرة في أنواع ما يقال من الذكر والدعاء.

وكذلك ما في القرآن من قوله تعالىٰ: ﴿١٢٠ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام] وقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤]. إنما هو قول: باسم الله. وهذا جملة تامة، إما اسمية، علىٰ أظهر قولي النحاة، أو فعلية. والتقدير: ذبحي باسم الله أو أذبح باسم الله. وكذلك قول القارئ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾. فتقديره: قراءتي باسم الله، أو أقرأ باسم الله. ومن الناس من يضمر في مثل هذا: ابتدائي باسم الله، أو ابتدأت باسم الله، والأول أحسن، لأن الفعل كله مفعول باسم الله، ليس مجرد ابتدائه؛ كما أظهر المضمر في قوله:

---

(١) رواه مالك (١/ ١٤٠ كتاب القرآن (٣٢)) مرسلاً بإسناد صحيح، والترمذي («صحيح سننه» ٢٨٣٧/ ٣٨٣٧) **وحسنه**، وهو كما قال باعتبار أن له شاهداً. انظر: «المشكاة» (٢٥٩٨) و«الصحيحة» (١٥٠٣).

(٢) ورواه الترمذي («صحيح سننه» ٢٦٩٤/ ٣٦٢٣) وهو حديث **حسن**. وهو في «صحيح الجامع الصغير» (١١٠٤).

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ①﴾ [العلق] وفي قوله: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡر۪ىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ [هود:٤١] وفي قول النبي ﷺ: «**من كان ذبح قبل الصلاة فليذبح مكانها أخرىٰ، ومن لم يكن ذبح فليذبح باسم الله**» {خ(٩٨٥)، م(١٩٦٠)}[1]. ومن هذا الباب قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح لربيبه عمر بن أبي سلمة {٢ ـ ٨٣هـ}: «**يا غلام! سمّ الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك**» {خ(٥٣٧٦)، م(٢٠٢٢)}[2]. فالمراد أن يقول: باسم الله، ليس المراد أن يذكر الاسم مجرداً. وكذلك قوله في الحديث الصحيح لعدي بن حاتم { ـ ٦٨هـ}: «**إذا أرسلت كلبك المعلَّم وذكرت اسم الله فكُلْ**» {خ(٥٤٨٣)، م(١٩٢٩)}. وكذلك قوله ﷺ: «**إذا دخل الرجل منزله فذكر اسم الله عند دخوله، وعند خروجه، وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء**» {م(٢٠١٨)}. وأمثال ذلك كثير.

وكذلك ما شُرِعَ للمسلمين في صلاتهم وأذانهم وحجّهم وأعيادهم من ذكر الله تعالىٰ، إنما هو بالجملة التامة، كقول المؤذن: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إلـٰه إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله. وقول المصلي: الله أكبر، سبحان ربي

---

(١) ورواه **طب** (٨٣٠٤) بلفظ: «...: بسم الله». ومثله **هـ** (٢٦٤١/٣٢٦٤) ـ عائشة. قال في «الفتح» (٢٣٧٦): (هو أصرح ما ورد في صفة التسمية).

قال الشيخ ناصر: (فلا يجوز الزيادة عليها). «الصحيحة» (٣٤٤).

العظيم، سبحان ربي الأعلىٰ، سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، التحيات لله. وقول الملبي: لبيك اللهم لبيك. وأمثال ذلك.

فجميع ما شرعه الله من الذكر، إنما هو كلام تام، لا اسم مفرد، لا مُظهر ولا مُضمر.

وهذا هو الذي يُسمىٰ في اللغة: كلمة، كقوله: «**كلمتان خفيفتان علىٰ اللسان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلىٰ الرحمٰن، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**» {خ(٦٤٠٦)، م(٢٦٩٤)}[١]. وقوله: «**أفضل كلمة قالها الشاعر: كلمة لبيد** {ـ ٤١هـ}: ألا كل شيء ما خلا الله باطل» {خ(٣٨٤١)، م(٢٢٥٦)}[٢]. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ...﴾ الآية [الكهف: ٥] وقوله: ﴿﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام].

وأمثال ذلك مما استعمل فيه لفظ: (الكلمة)[٣] من الكتاب والسنّة، بل وسائر كلام العرب، فإنما يراد به الجملة التامة،

---

(١) تقدم تخريجه صفحة (١٤٢).

(٢) وتمام البيت: وكل نعيم لا محالة زائل.
وقد استنكر إيراد هذا البيت في مكان آخر، أحد الذين يشغبون علىٰ عباد الله بغير الحق، من غير دليل، وذكر ذلك في فيض المقدمات المدسوسة المتناقضة عليهم من الله ما هم أهله.

(٣) قال ابن مالك في «ألفيته»: وكِلمة بها كلام قد يؤم.

كما كانوا يستعملون الحرف في الاسم، فيقولون: هذا حرف غريب؛ أي: لفظ الاسم غريب.

وقسم سيبويه {١٤٨ ـ ١٨٠هـ} الكلام إلىٰ: اسم، وفعل، وحرف جاء لمعنىً ليس باسم ولا فعل {الكتاب ١٢/١} وكل من هذه الأقسام يسمىٰ حرفاً. لكن خاصة الثالث: أنه حرف جاء لمعنىً ليس باسم ولا فعل.

وسمىٰ حروف الهجاء باسم الحرف، وهي أسماء.

ولفظ الحرف يتناول هذه الأسماء وغيرها، كما قال النبي ﷺ: **«من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»**[1]. وقد سأل الخليل بن أحمد {١٠٠ ـ ١٧٠هـ}[2] أصحابه عن النطق بحرف الزاي من زيد؟ فقالوا: (زاي). فقال: جئتم بالاسم، وإنما الحرف: (زَ).

ثم إن النحاة اصطلحوا علىٰ أن هذا المسمىٰ في اللغة

---

(١) رواه الترمذي «صحيح سننه» ٢٣٢٧/ ٣٠٨٧) بلفظ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة...» وقال: حديث حسن صحيح غريب. وينظر: «شرح عقيدة الطحاوي» (١٥٨).
وشطره الأول بزيادة: «فأعربه» موضوع. طس(٧٥٧٤)، هب(٢٢٩٦). «الضعيفة» (٢٣٤٨).

(٢) هو الخليل بن أحمد الفراهيدي، واضع علم العروض، المتوفىٰ سنة ١٧٠هـ.

بالحرف، يسمىٰ: كلمة، وأن لفظ الحرف يخص لما جاء لمعنىً ليس باسم ولا فعل، كحروف الجر ونحوها.

وأما ألفاظ حروف الهجاء، فيعبر تارة بالحرف عن نفس الحرف من اللفظ، وتارة باسم ذلك الحرف، ولما غلب هذا الاصطلاح صار يتوهّم من اعتاده أنه هكذا في لغة العرب، ومنهم من يجعل لفظ الكلمة في اللغة لفظاً مشتركاً بين الاسم مثلاً، وبين الجملة، ولا يُعرف في صريح اللغة من لفظ: (الكلمة) إلا الجملة التامة.

والمقصود هنا: أن المشروع في ذكر الله سبحانه، هو ذكره بجملة تامة، وهو المسمىٰ بالكلام، والواحد منه بالكلمة؛ وهو الذي ينفع القلوب، ويحصل به الثواب والأجر، ويجذب القلوب إلىٰ الله ومعرفته، ومحبته وخشيته، وغير ذلك من المطالب العالية، والمقاصد السامية.

وأما الاقتصار علىٰ الاسم المفرد مُظهَراً أو مُضمَراً، فلا أصل له، فضلاً عن أن يكون من ذكر الخاصة والعارفين.

بل هو وسيلة إلىٰ أنواع من البدع والضلالات، وذريعة إلىٰ تصورات وأحوال فاسدة من أحوال أهل الإلحاد وأهل الاتحاد.

كما قد بُسط الكلام عليه في غير هذا الموضع.

فصل

وجِماع الدين أصلان: ألّا نعبد إلا الله، ولا نعبده إلا بما شرع، لا نعبده بالبدع.

كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف].

وذلك تحقيق الشهادتين: شهادة أن لا إلـٰه إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله.

ففي **الأولىٰ**: ألّا نعبد إلا إياه.

وفي **الثانية**: أن محمداً هو رسوله المبلِّغ عنه، فعلينا أن نصدق خبره ونطيع أمره.

وقد بيَّن لنا ما نعبد الله به، ونهانا عن محدثات الأمور، وأخبر أنها ضلالة[١]. قال تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة].

وكما أننا مأمورون ألّا نخاف إلا الله، ولا نتوكل إلا علىٰ الله، ولا نرغب إلا إلىٰ الله، ولا نستعين إلا بالله، وألّا تكون عبادتنا إلا لله، فكذلك نحن مأمورون أن نتبع الرسول ونطيعه، ونتأسىٰ به. فالحلال ما حلَّله، والحرام ما حرَّمه،

---

(١) انظر: «خطبة الحاجة» للمحدث الألباني، طبع المكتب الإسلامي؛ فإن فيها شرح هذه الجملة حيث إنها من الخطبة.

والدين ما شرعه. قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة] فجعل الإيتاء، لله وللرسول، كما قال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر:٧]. وجعل التوكل علىٰ الله وحده بقوله: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ [التوبة:٥٩] ولم يقل: ورسوله ـ كما قال في وصف الصحابة رضي الله عنهم في الآية الأخرىٰ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران] ومثله قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال] أي: حسبك وحسب المؤمنين، كما قال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر] ـ ثم قال: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة:٥٩] فجعل الإيتاء، لله وللرسول، وقدَّم ذكر الفضل لله؛ لأن ﴿الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحديد] وله الفضل علىٰ رسوله وعلىٰ المؤمنين. وقال: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة] فجعل الرغبة إلىٰ الله وحده، كما في قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾ [الشرح].

وقال النبي ﷺ لابن عباس {٣ق هـ ـ ٦٨هـ}: «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**»[1]. والقرآن يدل علىٰ مثل هذا في غير موضع.

---

(١) تقدم تخريجه في صفحة (٨٤).

فجعل العبادة والخشية والتقوىٰ لله، وجعل الطاعة والمحبة لله ورسوله، كما في قول نوح عليه السلام: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣)﴾ [نوح] وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)﴾ [النور]. وأمثال ذلك.

فالرسل أمروا بعبادته وحده، والرغبة إليه، والتوكل عليه وطاعته، والطاعة لهم، فأضلَّ الشيطان النصارىٰ وأشباههم، فأشركوا بالله وعصوا الرسول، فـ ﴿(٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة] فجعلوا يرغبون إليهم ويتوكلون عليهم، ويسألونهم مع معصيتهم لأمرهم، ومخالفتهم لسنتهم.

وهدىٰ الله المؤمنين المخلصين لله، أهلَ الصراط المستقيم، الذين عرفوا الحق واتبعوه، فلم يكونوا من ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾، فأخلصوا دينهم لله وأسلموا وجوههم لله، وأنابوا إلىٰ ربهم، وأحبوه ورَجوه، وخافوه وسألوه، ورغبوا إليه، وفوَّضوا أمورهم إليه، وتوكلوا عليه، وأطاعوا رسله، وعزَّروهم[١]، ووقَّروهم، وأحبوهم ووالَوْهم، واتَّبَعوهم واقتفَوا آثارهم، واهتدَوا بمنارهم.

---

(١) أي: عظَّموهم.

وذلك هو دين الإسلام الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد ديناً إلا إياه، وهو حقيقة العبادة لرب العالمين.

فنسأل الله العظيم أن يثبتنا عليه، ويكمله لنا ويميتنا عليه، وسائر إخواننا المسلمين.

والحمد لله وحده وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم[1].

(١) من الصفحة (١٣٩) إلىٰ هنا، كله زيادة علىٰ النسخة الهندية، ومن بعض النسخ المطبوعة، ونسخة مخطوطة غير كاملة في خزانة زهير الشاويش.

شرح
قول الشيخ عبد القادر الجيلاني
(نازعت أقدار الحق بالحق للحق)

لشيخ الإسلام ابن تيمية

أشار شيخ الإسلام في الصفحة (٥٥) من رسالة «العبودية» لقول الشيخ عبد القادر الجيلاني {٤٧١ ـ ٥٦١هـ} هذا، فأحببت نقل شرحه لها لأن بعض المتصوفة حاول استغلال هذه الكلمة على غير مراد الشيخ عبد القادر رحمه الله

سؤال وجواب

سئل شيخ الإسلام عن معنىٰ قول الشيخ عبد القادر {٤٧١ - ٥٦١هـ}: **نازعت أقدار الحق بالحق للحق**(١)؟

فأجاب: الحمد لله. وبعد؛ فإن جميع الحوادث كائنة بقضاء الله وقدره، وقد أمرنا الله سبحانه أن نزيل الشر بالخير بحسب الإمكان، ونزيل الكفر بالإيمان، والبدعة بالسنة، والمعصية بالطاعة، من أنفسنا ومن عندنا، فكل من كفر أو فسق أو عصىٰ فعليه أن يتوب وإن كان ذلك بقدر الله، وعليه أن يأمر غيره بالمعروف وينهاه عن المنكر بحسب الإمكان، ويجاهد في سبيل الله وإن كان ما يعمله من المنكر و﴿ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧] بقدر الله، ليس للإنسان أن يدع السعي فيما ينفعه الله به متكلاً علىٰ القدر، بل يفعل ما أمر الله ورسوله، كما روىٰ **مسلم** في «صحيحه» {(٢٦٦٤)} عن النبي ﷺ أنه قال: «**المؤمن القوي خير وأحبّ إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. احرص علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله**

(١) أصل كلمة الشيخ عبد القادر (. . .أن كثيراً من الرجال، إذا وصلوا إلىٰ القضاء والقدر أمسكوا، إلا أنا فإني انفتحت لي فيه روزنة، فنازعت أقدار الحق بالحق للحق. . .).

ولا تعجزن. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان».

فأمر النبي ﷺ المسلم أن يحرص علىٰ ما ينفعه، والذي ينفعه يحتاج إلىٰ منازعة شياطين الإنس والجن، ودفع ما قدر من الشر بما قدره الله من الخير.

وعليه مع ذلك أن يستعين بالله فإنه لا حول ولا قوة إلا به.

وأن يكون عمله خالصاً لله؛ فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه، وهذا حقيقة قولك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ والذي قبله حقيقة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة] فعليه أن يعبد الله بفعل المأمور وترك المحظور، وأن يكون مستعيناً بالله علىٰ ذلك.

وفي عبادة الله وطاعته فيما أمر إزالة ما قدر من الشر بما قدر من الخير، ودفع ما يريده الشيطان ويسعىٰ فيه من الشر قبل أن يصل بما يدفعه الله به من الخير. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة:٢٥١] كما يدفع شر الكفار والفجار الذي في نفوسهم والذي سعوا فيه: بالحق، كإعداد القوة ورباط الخيل، وكالدعاء والصدقة اللذين يدفعان البلاء كما جاء في الحديث: «**إن الدعاء والبلاء ليلتقيان؛ فيعتلجان بين**

السماء والأرض»[١].

فالشر تارة يكون قد انعقد سببه وخيف فيدفع وصوله، فيدفع الكفار إذا قصدوا بلاد الإسلام، وتارة يكون قد وجد فيزال وتبدل السيئات بالحسنات. وكل هذا من باب دفع ما قدر من الشر بما قدر من الخير، وهذا واجب تارة ومستحب تارة. فالذي ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هو الذي أمر الله به ورسوله.

والمقصود من ذلك؛ أن كثيراً من أهل السلوك والإرادة يشهدون ربوبية الرب، وما قدره من الأمور التي ينهىٰ عنها، فيقفون عند شهود هذه الحقيقة الكونية، ويظنون أن هذا من باب الرضا بالقضاء والتسليم، وهذا جهل وضلال قد يؤدي إلىٰ الكفر والانسلاخ من الدين، فإن الله لم يأمرنا أن نرضىٰ بما يقع من ﴿ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات:٧]؛ بل أمرنا أن نكره ذلك وندفعه بحسب الإمكان، كما قال النبي ﷺ: **«من رأىٰ منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»** {م(٤٩)}.

والله تعالىٰ قد قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧] وقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة] فكيف يأمرنا أن نرضىٰ لأنفسنا ما لا يرضاه لنا، وهو جعل ما يكون من الشر محنة لنا

---

(١) تقدم تخريجه في صفحة (٦١).

وابتلاءً، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠] وقال تعالىٰ بعد أمره بالقتال: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾﴾ [محمد].

وفي «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ أنه قال: **«والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له»**(١).

فالمؤمن إذا كان صبوراً شكوراً يكون ما يقضىٰ عليه من المصائب خيراً له، وإذا كان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر مجاهداً في سبيل الله، كان ما قدر له من كفر الكفار سبباً للخير في حقه، وكذلك إذا دعاه الشيطان والهوىٰ كان ذلك سبباً لما حصل له من الخير، فيكون ما يقدر من الشر إذا نازعه ودافعه كما أمره الله ورسوله: سبباً لما يحصل له من البر والتقوىٰ وحصول الخير والثواب وارتفاع الدرجات.

فهذا وأمثاله مما يبين معنىٰ هذا الكلام. والله أعلم.

---

(١) رواه المصنف رحمه الله بالمعنىٰ ولفظ مسلم (٢٩٩٩): «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له».

فهرس الأحاديث والآثار

---

(١) ترمز هذه النجمة (*) إلى أن الحديث ورد في الحاشية، أو أنه لم يرد بهذه الصيغة المعروفة.

محتويات الكتاب

فهرس رسالة العبودية

(١) هذه الإشارة (*) بجانب الكلام، تعني أن الموضوع في الحاشية.